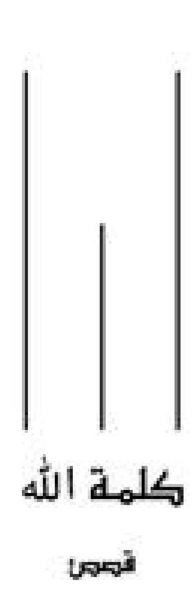


قصص

الدكتور عماد الدين خليل





كلمة الله

قصص

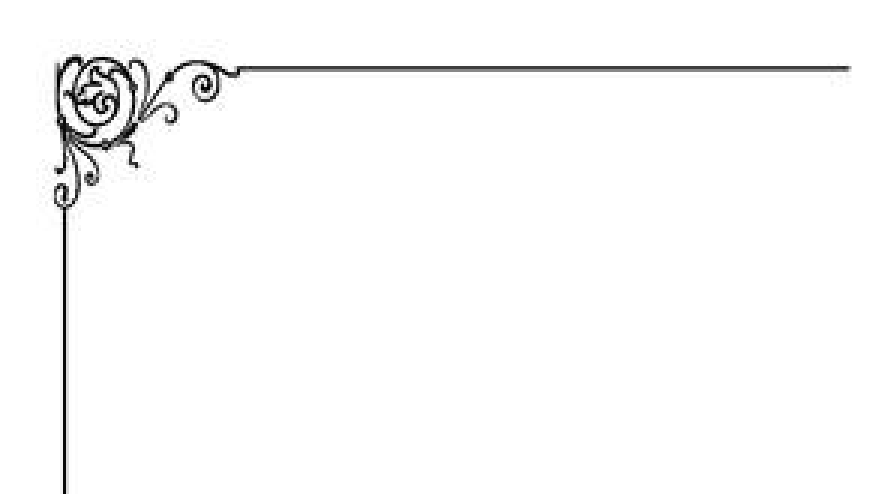
الطبعة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

كلمة الله

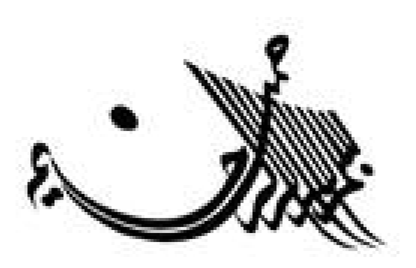
قصص

الدكتور

عماد الدين خليل



بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

ترددت طويلاً في الإقدام على كتابة القصة القصيرة، رغم أن موضوعاتها تجمعت لدي، ورغم أن إغراءاتها كانت أشد من أن تقاوم.

والسبب يكمن في أن (القصة القصيرة) هي واحدة من أشد الأنواع الأدبية صعوبة وتعقيداً، بسبب ضيق مساحتها، ومطالبها المتشابكة، بدءاً من العقدة وتنامي الحدث، مروراً باللغة المناسبة وضرورات الاقتصاد والتركيز.

لقد انحرف الكثيرون عن هذه المطالب ذات اليمين وذات الشمال.. بعضهم استغنى عن العقدة، بسبب عجزه عن اكتشافها أو التعامل معها، فانزلقت أعماله باتجاه نمط من المقالة الأدبية لا يحمل من القصة القصيرة سوى اسمها، وربما مساحتها، فحسب.

بعضهم الآخر ألحَّ في الإغماض من أجل تغطية عجزه هذا.. بينما راحت فئة ثالثة تبحث عن العقد التي لا رصيد لها في عالم الحسّ أو التجربة أو الحياة.

لم أشأ أن أقع في منزلقات كهذه، لهذا آثرت الانسحاب، أو في الأقل التعليق الزمني بانتظار اليوم الذي أتفرغ فيه للمحاولة، بعد أن تكون قد نضجت فعلاً على نار هادئة..

وفي رأيي أن احترام مطالب القصة القصيرة كما صممها المهندسون الكبار في الغرب والشرق، وعلى رأسها العقدة، يعد ضرورة من الضرورات، ليس فقط لتجاوز النزعة الهدمية التي تنطوي عليها بعض تيارات الحداثة الإبداعية، في سعيها المحموم لتدمير الثوابت الموضوعية، والجمالية معاً، حيث يصير التعبير هدفاً بحد ذاته، وإنما احترام وتقدير لحاجة القارئ الذهنية والنفسية إلى المتعة، والمشاركة، والتوق إلى الاكتشاف، والتوقع، والعثور في نهاية الأمر على الجواب..

وأخشى ما يخشاه المرء وهو يبحر في تيار الحداثة بمستوياتها الثلاثة: التنظير والنقد والإبداع، أن يجد نفسه قبالة حالات لا يمكن التسليم بها بسهولة: إلغاء مبدأ المتعة الفنية في العمل الإبداعي، وتحويل النشاط النقدي إلى جهد مختبري قد يضع الأسلاك الشائكة بين المبدع والمتلقي، أو بين النصّ والقارئ، ويصرف الأخير عن استدعاء الناقد لكي يعينه على التعامل مع النص ليس كمعادلة رياضية، أو كشف كيمياوي، وإنما كجهد إبداعي يستعصي على الجدولة والترقيم.

لابدّ من إعادة القصة إلى وضعها الطبيعي.. إلى رحمها الذي تخلّقت فيه.. وبالتالي لابدّ من رد ما سلبه منها بعض الحداثيين، وبخاصة مبدأ (المتعة) في زمن الميكانيك الصارم والتكاثر بالأشياء،

حيث تصير المتعة الفنية ضرورة ملحّة للإنسان المعاصر، وإلا ازداد تعاسة ونكداً وشقاء.

المجموعة القصصية التي يجدها القارئ بين يديه (واقعية) بالمفهومين النقدي الاصطلاحي، واللغوي.

فعلى المستوى الأول، تنتمي المجموعة إلى (الواقعية الإسلامية) بما أنها لا تكتفي بالتعامل مع الخبرات الواقعية فحسب، بل تحاول أن تنظر إليها، وقد توظفها لحساب الرؤية الإسلامية دون مباشرة أو تكلف أو افتعال، وإنما بنوع من الالتزام المرن، إذا صح التعبير، حيث تومض الرؤية من بعيد ومن خلال خفقان الشخوص أنفسهم، ونبض الوقائع والأحداث.

وهي على المستوى الثاني واقعية أيضاً، بمعنى أن كل قصة استمدت في معظم حلقاتها وشخوصها، من وقائع تشكلت بالفعل وشهدتها بنفسي أو شاركت في جانب منها، أو سمعت بها من آخرين إلى حد التواتر.

وهذا لا يعني بطبيعة الحال تجريد هذه القصص بالكلية من حلقات متخيلة، ولمسات مضافة هنا وهناك، بما هو ضروري على المستوى الفني الصرف للتحقق بمطالب هذا النوع الأدبي الصعب.

ومن الله وحده التوفيق...

الموصل

في حزيران ٢٠٠٠م

الاستقبال

بعد ثلاثة أشهر من بقائي في بغداد، ها أنا ذا أعود إلى الموصل مع بدء العطلة الربيعية. . هذه أوّل مرة أغيب فيها عن مدينتي الشهور الطوال.

كان ذلك في شتاء عام ١٩٥٩م، وكنت قد التحقت بكلية التربية حيث لم يكن في العراق كله سوى جامعة واحدة هي جامعة بغداد، وكان على خريجي الثانوية في المحافظات التوجه إلى هناك لقضاء أربع سنوات أو تزيد إذا ما أرادوا الحصول على البكالوريوس وضمان وظيفة محترمة.

كان الحنين للأهل والأصدقاء يحاصرني، والذكريات العذبة في مدينتي تتحدث إليّ بصمت، وأنا أكافح لعبور حاجز الزمن ومتاعب الدراسة بانتظار حلول يوم السفر الموعود.

قبلها ما كان يخطر على بالي أنني سأغيب عن المدينة شهوراً طوالاً ولكن للضرورات أحكامها كما يقولون. . ومهما يكن من أمر فها أنا ذا أحزم حقيبتي وأتوجه إلى محطة القطار لكي ينطلق بي إلى هدفي العزيز. . وما هي إلا ساعات الليل تكرّ بين اليقظة والنوم، ثم ما يلبث ضوء النهار أن يكشف لي في المدى منحنيات الموصل وروابيها التي بدأت تتلقى ـ ولا ريب ـ الكلمات الأولى من غزل الربيع، فتتنفس

بالخضرة والجمال والعطاء.. ناقوس المحطة يدق إيذاناً بانطلاق القطار ممتزجاً بصفير عربة القيادة..

لم يكن ناقوساً يدق، ولا عربة بخارية تزعق، ولكنها في سمعي على الأقل كانت موسيقا عذبة انسجمت فيها الأصوات بتوافق هارموني مثير للدهشة، تزيده روعة وجلالاً الضربات الأولى البطيئة للعجلات الحديدية التي تتمايل على السكة، وتلتمع وهي تعكس أضواء المحطة المتناثرة هنا وهناك.

وأحسست كما لو أنني مقطوع من شجرة، وأنا أرى العديد من الركاب يلوّحون بأيديهم مودعين.. وأقرباؤهم ومعارفهم يزدحمون على الرصيف المجاور ملوّحين بأيديهم هم الآخرون.

لم يكن ثمة من يودّعني.. وقلت مخاطباً نفسي: لست بأكثر من طالب جامعي في سنته الأولى.. فيما بعد، عندما تحصل على الشهادة قد تجد من يودعك.. أما الآن..

وتذكرت، وقلبي يخفق، كيف سأعوض عن هذا الإحساس بالإهمال استقبال الأهل لحظة وصولي الدار بعد ثلاثة أشهر بتمامها من الفراق.

لا بأس.. قلت في نفسي.. فهناك ستجد الدفء والحنان، فليس ضرورياً أن يحاط كل مسافر بالمودعين.

التهمت عشائي بسرعة.. وأخرجت رواية (الابن الضال) للأديب الفرنسي (موروا) ورحت أقرأ بنهم، مستعيناً على طول الطريق وبطء القطار بمتابعة أحداث الرواية..

كانت عربات القطار تهتز ذات اليمين وذات الشمال.. وسرعان ما تناوشني الصداع حيث لم يكن نظري يتابع الكلمات الصغيرة للكتاب بسهولة، فاضطررت إلى إقفاله وأنا أنظر إلى الساعة..

العاشرة مساءً.. لم يمضِ إذاً ـ على بدء الرحلة ـ سوى ساعة فحسب وأمامك عشر ساعات أخرى، وربما أكثر، لكي تكتحل عيناك برؤية المساحات الجنوبية المتموجة لمدينة الموصل..

حاولت أن أنام فلم أستطع، وأجلت عيني بنوع من الحسد في ركاب العربة.. كان معظمهم يغط في نوم عميق.. وبذلت محاولات استثنائية لكي أصير مثلهم تماماً، فلا أستيقظ إلا على زعيق مقطورة القيادة وهي تعطي إشارة الوصول.. ولكن عبثاً..

ومرة أخرى جرفتني دوامة الحسد، وتساءلت: كيف يتمكن الإنسان من النوم وهو قاعد على كرسيه؟! ليتني كنت مثلهم.. فها هو ذا شخيرهم يغطي على الإيقاع البطيء الرتيب للعجلات الحديدية وهي تطوي بتثاؤب وكسل الخط الحديدي العتيق القادم من بدايات القرن..

وقلت بحنق وازدراء: أتراهم لا يزالون يطلقون عليه قطار الشرق السريع؟! وفتحت (الابن الضال) مرة أخرى لعلي أستعين بها على استدعاء النوم، ولكن دون جدوى، فلقد تصدى لي الصداع ثانية وأرغمني على إقفالها والعودة إلى متابعة عقرب الساعة وهو يدور ببطء مجتازاً الأرقام الاثني عشر تماماً كما يجتاز القطار بالبطء المقرف نفسه أعمدة الهاتف الممتدة على طول الطريق.. وقلت في نفسي: لو كانت الرحلة في النهار لكان لي شأن آخر مع الملل والانتظار، فعبر

النافذة يمكن أن أنشئ ـ كعادتي ـ علاقة ما مع الطبيعة والأشياء والموجودات، وحينذاك قد تمضي الساعات دون أن أشعر بها.

ثمة وسيلة أخرى للهروب.. ما يسمونه بالمنولوج الداخلي.. ولقد حاولت بالفعل أن أوغل فيه.. ولكن الصداع والملل ونفاد الصبر، فضلاً عن الغيظ المتزايد إزاء الركاب الذين ازداد شخيرهم إلى حدٍّ لا يطاق.. سدّت علي الطريق إلى هناك.. وكان علي أن أرجع ثانية إلى سطح الأشياء وإذ كانت الظلمة تحدق بها.. تغطيها تماماً.. فليس ثمة شيء إذاً.. ليس ثمة ملاذ من الملل والانتظار..

وخفق قلبي مرة أخرى وأنا أتخيل لحظات اللقاء، فقلت: لا بأس، وعليك أن تدفع ضريبة الطريق الطويل ما دامت الثمرة تستحق الجهد والمعاناة.

كنت مرهقاً.. وأحسست برأسي يزداد توتراً، وأوجاع الصداع تضرب فروته من نقطة ما.. وكنت أضع إصبعي ضاغطاً عليها لعلي أخفف من شراستها ولكن دون جدوى.. وتساءلت فيما إذا كان الحال سيستمر بالصيغة نفسها عبر كل رحلاتي القادمة بالقطار.. ذهاباً إلى بغداد أو إياباً منها؟!

ولست أدري كيف أخذتني سنة من نوم راحت تتناوشني لساعة أو ساعتين.. لم تسخُ عليَّ بإغفاءة عميقة مشبعة، ولكنها كسرت على الأقل حصار الملل والانتظار، واختزلت علي دورات الزمن الرتيب، ووضعت فاصلاً موقوتاً بيني وبين الصداع.

وتوهمت للحظات، وأنا أركز نظري عبر النافذة، في المدى المظلم الذي لا يكاد أحد يتبين منه أي شيء على الإطلاق، أن ثمة انقشاعاً للظلمة بدأ يطل من المسافات الشرقية البعيدة للعراء..

لعله الخيط الأبيض.. قلت في نفسي.. ولكن سرعان ما تبين لي خطأ حدسي.. اللعنة على الحواس.. إنها هي الأخرى تمارس الخداع..

ولكن، وبعد أكثر من ساعة، أخذ يتبين لي أن رؤيتي هذه المرة حقيقية تماماً، وأن ما ألحظه في آخر نقطة مرئية من الأفق، هو انبلاج الفجر..

يا الله ها نحن ذا نقترب، وها هو ذا الزمن يتصالح مع المكان، وتصير بدايات الفجر إيذاناً بتجاوز المسافات..

تمطّى بعض الركاب، وتثاءب آخرون، وما لبثوا أن عادوا إلى نومهم العميق.. فئة ثالثة فركت أعينها بارتياح، ونهض بعضهم لكي يغسل وجهه استعداداً لاستقبال الصباح..

الحمد لله.. ها أنت تجد أخيراً من يشاركك الانتظار.. ولن تبقى وحيداً منعزلاً بعد الآن.. وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة وتجد نفسك في المدينة التي غبت عنها طويلاً..

خفق قلبي والقطار يجتاز نفق (البوسيف) المظلم، وأحسست بشيء من الخوف وضيق النفس، وتساءلت بوجل: ماذا لو أصابه عطل ما واضطر للوقوف هنا الساعات الطوال؟ وحاصرني إحساس قاسٍ

بالاختناق حاولت أن أستعين عليه بسحب نفس عميق ولكن عبثاً. . ولست أدري لم تذكرت لحظة تغييب الجسد في التراب. . عقب الموت. . دسّه فيه وإهالة الركام عليه. . فازدادت أنفاسي ضيقاً وأنا أحاول أن أطمئن نفسي بأن بيولوجيا الإنسان تتعطل يومذاك فليس ثمة حاجة إلى الأوكسجين على الإطلاق.

وأطلت الثغرة المضيئة من الطرف القصي الآخر للنفق ولفحت وجهي المتشبث بالنافذة نصف المفتوحة رشفة من الهواء النقي، فقلت: الحمد لله. . ها نحن نتحرر من أسر الظلمة والاختناق. .

كانت عيناي معلقتين بالإشارتين الخضراء والحمراء. . المنصوبتين في مكان مرتفع يطل على السكة عند مدخل المدينة. .

ها هي ذي. . قلت في نفسي، ولمحت إحداهما ترتفع والأخرى تنزل إيذاناً للقطار بالمرور، فليس ثمة حركة معاكسة على السكة قد تضطره للتوقف. . وبدأت لحظات الخفقان التي أعرفها جيداً والتي طالما عذبتني في اللحظات الحرجة. . ليس فقط وجعاً روحياً ولكنه ألم جسدي أكاد ألمسه بيدي، يجعل قلبي يدقّ بسرعة؛ كطائر سجين يريد أن ينطلق إلى الفضاء. .

البدايات الأولى لرصيف المحطة أخذت تطل من بعيد بينما راح القطار يزعق، وينفث رشقات من الدخان الأسود والرمادي معرباً هو الآخر عن فرحته بالوصول، ثم ما لبث أن أخذ يتباطأ شيئاً فشيئاً، وارتفعت مرة أخرى أصوات العجلات وهي تضرب السكة بلا رحمة. .

ثمة حشد من المستقبلين وسائقي التاكسيات والحمالين يتجمهرون على الرصيف، فرادى ومجتمعين، وعمال التنظيف والخدمات يتراكضون هنا وهناك.. ورغم يقيني بأن لا أحد ممن أعرفه ينتظرني هناك.. إلا أن موجة من الحياء اكتسحتني، وكففت للحظات عن التفرس عبر النافذة المفتوحة في وجوه المستقبلين، وأنا أحاول أن أطمئن نفسي بأنني مجرد طالب اعتيادي جداً، وفي المرحلة الأولى من دراسته الجامعية، يعود من بغداد لقضاء عطلته القصيرة في الموصل.

لدهشتي أحسست وأنا أنقل عيني بين الرصيف والعربة، كما لو أن أبي يقف هناك، وازدادت دهشتي وأنا أتوهم وقوف أخي الكبير إلى جانبه، وكان القطار يزداد تباطؤاً وهو يقطع الأمتار القليلة المتبقية على رحلته الطويلة بموازاة الرصيف، قبل أن يكف نهائياً عن المسير.

وقلت في نفسي: لعلها آثار السهر والصداع والإعياء ما يجعلني لا أتبين الشخوص والمرئيات جيداً.

بعض المسافرين لم يطيقوا صبراً على اجتياز اللحظات الأخيرة هذه فقفزوا من السلم بخفة ورشاقة قبل أن يتوقف القطار، وسرعان ما وجدوا أنفسهم على الرصيف.. لست مثلهم.. قلت في نفسي.. ومن يصبر اثنتي عشرة ساعة لا يصعب عليه أن ينتظر دقائق أو لحظات أخرى.. واسترقت النظر مرة أخرى إلى الرصيف.. كان أبي وأخي كما خيل إلي قد أصبحا بموازاة النافذة تماماً، وسرعان ما تبين لي أنهما هما، وأنني لست واهماً على الإطلاق..

لوحت لهما على استحياء فلم يردّا عليّ.. ابتسمت لهما فيما

اعتبرته عرفاناً بالشكر والتقدير على تجشمهما عناء المجيء إلى المحطة لاستقبالي فأشاحا بوجهيهما عني..

- *سبحان الله!!*

قلت في نفسي، وأردفت:

- *إنهما هما بكل تأكيد..*

على بعد خطوات لمحت خالي وعدداً من أبناء عمومته.. لمحت أيضاً زوج خالتي وولديه.. ووجدتني أكافح لاجتياز حاجز الخجل وأنا ألوح لهم وأهش بوجوههم.. ولكنهم كانوا جميعاً يشيحون برؤوسهم عني باتجاه واحد.. العربة الأخيرة من القطار..

- *كأنهم على اتفاق!!*

قلت في نفسي..

- *ولكن لماذا لا يردون عليّ؟!*

وأحسست بشيء من التضاؤل وأنا أجابه هذا الإهمال المتعمد..

- *ولكن لماذا؟!*

تساءلت مرة أخرى، وتمنيت لو أظل معتكفاً في العربة وألا أنزل إلى الرصيف أبداً.. ونسيت، وأنا أكافح الدهشة، والخجل، والإحساس المرير بالتجاهل والإهمال، أنه إذا كان ثمة ما يبرر خروج أبي وأخي لاستقبالي في المحطة، ربما لكونها الرحلة الأولى بعيداً عن الموصل عبر مدى زمني متطاول تجاوز الأشهر الثلاثة، فما الذي يبرر خروج العديد من الأقرباء ممن لم تكن ثمة ضرورة على الإطلاق

لاستقبالي.. وإذا كان لهؤلاء أن يشيحوا بوجوههم عني لسبب أو آخر، فما لأبي وأخي يمارسان مثلهم تماماً الشيء المثير نفسه؟!..

توقف القطار تماماً فأحسست بأن قلبي يغادر مكانه باتجاه الحلقوم، وعاد الوجع الجسدي ذو البطانة الروحية يحاصرني من جديد..

حملت حقيبتي الصغيرة ونزلت درجات السلم وأنا أكاد أتعثر.. رفعت يدي المرتجفة ملوّحاً للأقرباء واحداً واحداً وأنا أجتازهم بصعوبة، شاحب الوجه، باتجاه أبي وأخي، فهما الملاذ الذي سآوي إليه، ولابد لرحلة العذاب هذه من نهاية.

لم يكترث أحد من الأقرباء على الإطلاق بالردّ على تحيتي، وكانوا جميعاً بمجرد أن أمرّ بأحدهم، يشيحون بوجوههم عني، باتجاه العربة الأخيرة مركزين أنظارهم هناك وكأنهم ينتظرون، أو يتوقعون شيئاً ما.. شيئاً بدا لي خيالياً، ولكنه حاضر بكل تأكيد..

بصعوبة بالغة، كمن يكافح لاجتياز سباق ركض الحواجز، كمن يجثم على صدره كابوس ثقيل فيرغمه على الحركة البطيئة التي يصير معها قطع المسافات أمراً متعذراً، رحت أقترب أكثر فأكثر من أبي وأخي، وأنا أقول في نفسي:

- *لحظات، وينتهي كل شيء..*

فوجئت بأن أحداً منهما لم ينبس ببنت شفة وأنا أحدق فيه على استحياء.. لم يهنئني بسلامة العودة.. أو يسألني عن شيء.. لم يمد إلي يده مصافحاً، أو رأسه مقبلاً.. وأحسست للحظات بأنني

أضيع.. أغوص في بئر عميق.. وتمنيت لو آوي إلى نفق في الأرض يغيّبني عنهما.. عن كل الأقرباء المتجمهرين على الرصيف، والذين مارسوا ذبحي بسكين الإهمال واللا اكتراث..

كانت عيون أبي وأخي معلّقة هي الأخرى بالعربة الأخيرة من القطار.. وأردت أن أصرخ..

- ماذا بالله عليكم؟!

ولكن غلبني القهر والحياء.. وما لبثت أن رأيتهم جميعاً: أبي وأخي وخالي وأبناء عمومته.. كلهم يشيرون باتجاه واحد وسرعان ما راحوا يتراكضون نحو العربة الأخيرة، على بعد عشرين متراً أو ثلاثين من منتصف الرصيف..

عقدت الدهشة لساني تماماً.. فلم أستطع أن أطلق السؤال الذي ظل مختنقاً في أعماقي.. ما الذي حدث؟ وبدلاً من ذلك وجدتني أركض أنا الآخر باتجاه العربة الأخيرة، في محاولة للعثور على الجواب، ولعلها رغبة جارفة في الاندماج بهم وتجاوز حاجز التقابل اللعين بين مسافر يجيء من بغداد ومستقبلين يشيحون بوجوههم عنه دون أي قدر من الاكتراث أو التقدير..

عندما اقتربوا من باب العربة لحظتهم يتدافعون بالأيدي والمناكب.. كل يحاول أن يحظى بنصيب في حمل صندوق خشبي كان ينزلق على الأكتاف عبر درجات السلّم.. لكي ما تلبث هذه الأيدي أن تحمله، مجتازة به الرصيف، صوب مدخل صالة الانتظار..

وسمعتهم يرددون: لا حول ولا قوة إلا بالله..

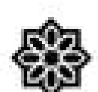
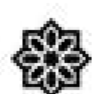
كانت آثار السهر والانتظار قد حفرت في وجوههم خطوطاً غائرة، زادها الحزن عتمة، وإيغالاً، ولمحتهم يجففون دموعهم بالمناديل وهم يردّدون بصوت مختنق:

- *إنا لله وإنا إليه راجعون..*

بعد لحظات وجدتني وحيداً على الرصيف.. وحيداً تماماً.. تحاصرني الكآبة والضياع.. ونظرت إلى السماء.. كانت الغيوم الشاحبة تحجبها، وأحسست كما لو أنني أغوص في مستنقع رمادي، وأن الأشياء والموجودات كلّها يلفها الرماد..

أمسكت بالحقيبة الصغيرة جداً وتسللت عبر أحد الأبواب الجانبية للمحطة.. لكي ما تلبث سيارة أجرة عتيقة أن تحملني إلى البيت..

وهناك عرفت من أمي التي كانت عيناها قد تورّمتا من البكاء.. أن ابن عمها عميد الشرطة، حسن البزّاز، كان قد توفي فجأة يوم أمس في سجن بغداد في ظروف غامضة، قبل يومين فقط من موعد مثوله قبالة محكمة (المهداوي) المعروف بشتائمه القاسية للمتهمين، حيث لم يكن مزاج (البزاز) العصبي وحساسيته المرهفة تسمحان له بقبول أي إهانة على الإطلاق..

اللغز المغربي

عرضاً قرأت في إحدى الصحف العراقية إعلاناً صغيراً يحمل العنوان التالي (رجل أعمال مغربي يطلب شريكاً عراقياً).

أمعنتُ النظر في التفاصيل الموجزة التي لا تتجاوز حجم الكف (استعداد الرجل لتمويل الشريك المنتظر والسفر إلى العراق لترتيب تفاصيل العمل) ثم عنوانه الدقيق (زنقة جابر، حي الرجاء بالله، الرباط).

كنت أملك خبرة تجارية لا بأس بها.. وكان الملل والفراغ قد بدأا يتسربان إلى عظامي، ولم يعد ثمة ما يمنحني الفرح اليومي والتشبث بالأشياء كما كنت في بدايات شبابي.. يبدو أن المرء وهو يدلف إلى الكهولة مرغم على اجتياز النفق الضيّق بين مرحلتي العمر.. على توديع الفرح، والدهشة، وعشق الاكتشاف، واستقبال عهد الكآبة والملل والتكشف الذي يقود إلى تسطح الحياة، وتضحل العمق النفسي قبالة الوجود..

جاء الإعلان فرصة لكسر الحصار ومحاولة الاكتشاف من جديد.. غير مصدّق في أن أتلقى رداً. كتبت رسالة موجزة ووضعتها في صندوق البريد.. بعد أقل من شهر جاءني الجواب.. دهشت للسرعة

التي رحلت فيها رسالتي إلى الرباط وعادت بالجواب.. فضضت الغلاف على عجل.. الرجل المدعو (عبد العزيز لغزاوي) رجل الأعمال إياه، سيطير إلى بغداد خلال أسبوع أو أسبوعين، وسيتصل بي في الموصل فور وصوله لترتيب موعد اللقاء والاتفاق على التفاصيل..

بعد أيام قلائل دقّ جرس الهاتف في بيتي.. لم أكن موجوداً، وسمعت زوجتي صوت رجل غريب، ومفردات سريعة متلاحقة، لم تألفها ولم تكد تدرك ما الذي يريد صاحبها أن يقول، لكنها التقطت بصعوبة عنوانه في بغداد (فندق ميليا المنصور، غرفة ٢١٣).

بمجرد أن عدت إلى البيت أعلمتني بالمكالمة.. هرعت إلى الهاتف غير مصدق أن الرجل ينتظرني بالفعل في بغداد.. أدرت القرص وطلبت من موظفة الاستقبال أن توصلني به.. جاءني صوته رقيقاً سريعاً متقطعاً.. ومن أجل عدم تفويت كلمة مما يقول بذلت جهداً استثنائياً في الإنصات.. وقلت له وأنا أرحّب به وأعرب عن سعادتي بوصوله: إنني سأسافر إليه ظهر اليوم نفسه، مساء سأكون عنده في الفندق.

حاولت زوجتي أن تسأل فأشرت إليها بكفيّ وأنا أنظر إلى الساعة أن الوقت لا يسمح بالتفاصيل.. امتعضت قليلاً فأعلمتها أنها ستعرف كل شيء بمجرد عودتي من بغداد..

بعد أربع ساعات كنت أقف قبالة موظفة الاستقبال وأطلب منها الاتصال بالسيد: عبد العزيز لغزاوي الغرفة ٢١٣.

سرّ الرجل لوصولي السريع والتزامي بالوعد، وأعرب عن ترحيبه البالغ قائلاً:

- *لحظات وستجدني في صالة الاستقبال..*

تلقيته بالأحضان.. وتبادلنا القبلات وكلمات الترحيب.. ونادى الرجل على كوبين من الشاي.. كان الجو في الخارج بارداً، ولكن شمس بغداد العذبة، والتدفئة المركزية للميليا جعلته ممكناً في صالة الفندق..

ما أثار دهشتي بعض الشيء أن الرجل موغل في العمر إلى حد ما وأنه يستقبل العقد السابع، لكنه يملك حيوية ملحوظة يعرفها جيداً كل من تعامل مع رجال الأعمال الذين تدفعهم مطالب العمل المتلاحقة إلى أن يظلوا متشبثين بحيويتهم حتى ما بعد السبعين لكي ما يلبثوا أن يتقوضوا على حين غفلة..

أعلمني أنه على استعداد لبدء العمل في التو، وأنه تمكن بالاتفاق مع الجهات الرسمية من تحويل مبالغ مناسبة من العملة الصعبة.. وقال وهو يربت على كتفي بمحبة:

- *فلنتوكل على الله يا عدنان فإن خير البر عاجله.*

- *وما الذي تريدني أن أفعله على وجه التحديد؟*

قال وهو يمسح زجاج نظارته ذات الإطار الذهبي بقطعة من القماش المخملي الأصفر..

- *الأوفيس هو البداية الصحيحة لأي نشاط في عالم الأعمال.*

اتصلت هاتفياً بزوجتي في الموصل وأعلمتها أنني سأضطر إلى المبيت في بغداد.. وحاولت أن تسأل كعادتها لكني قلت لها مرة أخرى:

- *فيما بعد ستعرفين كل شيء..*

وأقفلت السماعة..

بت ليلتي تلك في غرفة مجاورة لرجل الأعمال.. وفي الصباح، وبعد تناول الفطور في المطعم الصيني في الفندق، انطلقنا للبحث عن مكان مناسب ولم يطل بنا السرى.. فقد كانت قدرات الرجل المالية كفيلة بتذليل الصعاب. وما لبثنا أن رتبنا قائمة بالبضائع التي يمكن التعامل معها، والعناوين التي يتحتم الاتصال بها لتأمين المطلوب.. كما اتفقنا على العديد من التفاصيل الإجرائية في مسائل الاستيراد التي كنت أملك قدراً من المعرفة بها..

وارتاح الرجل لسرعة بداهتي في التعامل مع الأمور، وقال وهو يربت كعادته على كتفي:

- *أستطيع أن أغادر بغداد وأنا مطمئن إلى قيام شريكي بالمهمة على أفضل وجه..*

أبديت تواضعاً مصطنعاً وأنا أقول:

- الفضل لك أولاً وأخيراً.. و..

قاطعني ويده لا تزال على كتفي:

- بمقدورك أن ترجع اليوم أو غداً إلى الموصل لكي تطمئن الأسرة، ولكن وجودك في بغداد أصبح ضرورياً..

- بكل تأكيد..

- سأغادر بغداد أنا الآخر عائداً إلى الرباط، وأنا سعيد بنجاح رحلتي، ولسوف يعيننا الهاتف على تجاوز ما قد نجابهه من مشاكل..

- إن شاء الله..

ثم أردفت مجاملاً:

- كم كنت أتمنى أن تزور الموصل.. إنها مدينة جميلة، وهي أقرب إلى مدن البحر المتوسط التي يعرفها الشاميون والمغاربة جيداً..

قال وملامح الغبطة تكسو وجهه:

- هل أعتبرها دعوة أكيدة منك؟

- سأكون سعيداً.. إنها أمنية أرجو أن تتحقق!!

- في المرة القادمة لن أدع الفرصة تفلت من يدي..

- إن شاء الله..

وقال وهو يجرني من يدي إلى حافة كاونتر الاستقبال لتصفية فاتورة الفندق..

- أرجو في المقابل أن تتقبل دعوتي للقيام برحلة مشتركة في بعض البلدان الأوروبية.. إنها مجرد رحلة ترفيهية لا غير.. قد تزيد التعارف بيننا قوة وعمقاً.

تذكرت الملل والفراغ وفقدان طعم الأشياء.. والممر الضيق بين الشباب والكهولة، وقلت في نفسي: لكم أنت محظوظ يا عدنان.. ها هي ذي الفرصة تجيئك دون أن تبذل جهداً للبحث عنها.. وسرعان ما وجدتني أقول له:

- كما تقبلت دعوتي فإنني سعيد بقبول دعوتك.. ولكن..

قاطعني بنفاد صبر:

- لا أرتاح لكلمة (لكن) ولسوف أبعث إليك بمجرد وصولي إلى الرباط بتذكرة السفر والتفاصيل الأخرى.

أجبته وأنا أحاول أن أتشبث بالفرصة القادمة من السماء:

- سأكون عندك ـ بإذن الله ـ بعد أيام قلائل من وصول التذكرة..

عدت إلى الموصل على عجل وأعلمت زوجتي ببعض التفاصيل محتفظاً لنفسي بتفاصيل أخرى، ثم ما لبثت بعد يومين أن يممت وجهي صوب بغداد حيث رتبت أمور المكتب، وعثرت على فراش مناسب، ولم أجد صعوبة كبيرة في تأثيثه.. فالمال يصنع المستحيل.. وبدأت عجلة الاتصالات والعمل تدور..

❀ ❀ ❀

في اليوم الخامس تلقيت مكالمة هاتفية من الرباط.. وجاءني صوت لغزاوي من بعيد:

- *التذكرة في طريقها إليك.. إنني بانتظارك في مطار الدار البيضاء مساء الرابع عشر من فبراير.. أريد منك فقط أن تعلمني بعد يوم أو يومين عن رقم الرحلة التي ستصل عليها..*

ورفعت صوتي بأعلى ما أطيق:

- *سأتصل بك إن شاء الله في أقرب وقت..*

أقفلت السماعة وأنا أسحب نفساً عميقاً.. وقلت في نفسي: إن الرجل جاد تماماً..

وها هو يصدق معي للمرة الثانية..

تلقاني في مطار الدار البيضاء بالأحضان، وقال وهو يحاول أن يعينني على وضع الحقيبة الخاصة في عجلة الحقائب ويقودها بدلاً عني:

- *هل سبق لك أن زرت فرنسة؟*

- فرنسة؟! لا . . ولكني أعرف إنكلترة جيداً من خلال رحلتين سياحيتين إليها . .

- فرنسة شيء آخر يا عدنان . . ولكن ليس قبل أن ترتاح قليلاً في الرباط . . وتجرب حظك مع الكسكس والبصطيلة . .

- لدينا في الموصل ما يشبه الكسكس الذي طالما تحدّث عنه المتحدثون، ولقد أتيح لي أن أوغل فيه لدى صديق تونسي أيام دراستي الجامعية في بغداد . . ولكن ما حكاية البصطيلة؟

كشف عن أسنان لا تزال بيضاء لم يمسسها سوء رغم تقدمه في العمر وقال:

- تأكلها أفضل من أن تسمع بها!!

❀ ❀ ❀

كانت أياماً ممتعة في الرباط، توجهنا بعدها إلى باريس لكي نقضي هناك أسبوعين . . لم نترك ملمحاً حضارياً أو سياحياً يفلت من بين أيدينا . . وكنت مرتاحاً للرجل، ليس لنضجه الزمني ورصانته فحسب، بل لكونه كان يتحاشى بؤر الشرّ والفساد التي تعج بها باريس ويشير إليها بقرف واشمئزاز . . وكنت مثله تماماً رغم فارق السنّ بيننا، ولكن البيئة المتعففة التي نشأت فيها والتزامها الملحوظ بقيم الدين والخلق وضوابطهما جعلتني أنفر بطبعي من العفن والفساد . .

ويوماً قال لي عبد العزيز:

- ها قد حان موعد الرحيل.. ليس ثمة شيء إلا وله نهاية..

أدركت ما يقصد فقلت:

- أظن أن أسبوعاً واحداً بجولات مكثفة كهذه.. يكفي.. و..

قاطعني وقد رق صوته أكثر فأكثر:

- ثمة خبر أحب أن أزفه إليك.. وأظنك ستشاركني فرحي..

قلت وأنا أرسم على وجهي ابتسامة عريضة:

- إن شاء الله..

قال:

- سأتزوج عما قريب.. خطيبتي تنتظرني هناك في الرباط.. وقد ضربت لها موعداً بعد يوم أو يومين.. لقد رحّبت بي وأهلها رغم فارق السن بيني وبينها.. لكن المشكلة تكمن في أخويّ اللذين لم يرتاحا لزواج كهذا.. وقالا بأنه غير متكافئ.. ليس فقط لفارق العمر الكبير في السن.. بل لكون الفتاة من بيئة فقيرة.. تقطن

وأهلها حياً بائساً، ونحن ننتمي إلى أسرة عريقة..
معروفة بالثراء والجاه والمكانة الاجتماعية..

قلت مجاملاً:

- ليست هذه الفوارق المصطنعة مما يعيق.. إنني أعرف أزواجاً كثيرين بلغت تجربتهم قمة النجاح رغم حاجز الفقر والغنى بين الطرفين..

أجاب بنفاد صبر:

- لم آبه لهما على أي حال.. ولسوف أتزوج بإذن الله.. وما قدّر كان..

- إن شاء الله.

سألني مجاملاً:

- هل تحب أن تصطحبني إلى الرباط لكي تشاركني أفراحي.. و..

قاطعته:

- أفضل أن أرجع إلى بغداد لمتابعة أعمال المكتب هناك، داعياً لك بالسعادة والرضا..

- لن أغيب عنك طويلاً.. سأحاول أن أقضي معها أسبوعاً واحداً في إسبانية ثم ألحق بك في بغداد.. مثلي يكفيه أسبوع عسل وليس شهراً بأكمله..

ضحكت وأنا أقول:

- ما أدراك؟! لعله يصير سنة بتمامها.. أنتم أيها الجيل المخضرم، أشد تشبثاً بفرص الحياة منا نحن الشباب المساكين..

لم يعلّق على كلامي، وقال بنبرة أسى:

- لم أكن موفقاً في زواجي الأول رغم أنني رزقت منه بولدين وثلاث بنات.. ولكن ها هم الآن ينضمون إلى أعمامهم في خط المعارضة ويشنون علي حملة قاسية..

- قد يكون لديهم بعض الحق.. فامنحهم الأعذار.. ولكن ما موقف الأم؟

- يكفيها ما تعانيه من حصار الأمراض والشلل النصفي..

- أعانها الله..

- أريد أن أتلقى منك فور وصولك بغداد مكالمة هاتفية أطمئن فيها على سلامتك، وأطلع على أعمال المكتب.



بعد أقل من شهر تلقّيت مكالمة من الرباط.. كنت يومها في الموصل وجاء ابني الصغير وهو يلثغ وتتدافع الكلمات في فمه:

- *نداء خارجي يا بابا.. من صديقك المغربي..*

أعلمني عبد العزيز أنه سيجيء وعروسه إلى بغداد خلال أيام قلائل، وأن علي أن أستأجر له داراً مناسبة في بغداد.. وسمعته يقول محاولاً إيصال صوته بصعوبة:

- *إنني أعشق بغداد..*

رفعت صوتي أنا الآخر إلى المدى:

- *أرجو أن تكون رحلتكما إلى إسبانية قد كلّلت بالنجاح..*

قال:

- *سأحكي لك فيما بعد، والذي أريده هو أن تسرع في إيجاد الدار المناسبة في مكان مقبول.. أفضل أن يكون على حافة دجلة.. لا تدري يا عدنان كم أحب هذه النهر السخي..*

حاولت أن أجيبه فقاطعني:

- *لا تهتم لقيمة الإيجار.. تعاقد على ما يناسبك مهما غلت الأسعار..*

❀ ❀ ❀

هرعت إلى بغداد.. ووفقت عن طريق الاتصال ببعض مكاتب السمسرة وعدد من الأصدقاء في العثور على دار أنيقة تطل على دجلة في الجانب الشرقي قريباً من جسر الأعظمية..

وخرجت لاستقباله وعروسه على الرحلة المغربية القادمة من الدار البيضاء، وأخذتهما بسيارتي إلى البيت الذي سخوت في تأثيثه..

وقال وهو يطوح بحقيبته اليدوية في صالة البيت وينظر بدهشة وإعجاب إلى الأثاث، ثم يخطو بجذل صوب الشرفة المطلة على دجلة:

- *لم أكن أعرف أنك فنان أيضاً..*

- *لقد أعطيتني الإشارة بالصرف المفتوح.. فهو ليس فضلي على أي حال..*

أخذتهما إلى المطبخ وأشرت إلى الثلاجة والبراد قائلاً:

- *ستجدان فيه كل ما تحتاج إليه ربة البيت.. أما اليوم فلن أدع عروسك تدخل معركة المطبخ وإعداد الطعام.. أنتما مرهقان ولسوف أبعث إليكما عند الغداء وجبة بغدادية أظن أنها ستنسيكما الكسكس والبصطيلة..*

ضحكا معاً.. وقالت العروس:

- *لقد حدثني عبد العزيز عن السمك (المزكوف) و(الدولمة)، و(كبة الموصل)..*

قاطعتها قائلاً:

- كبة الموصل ستتعرفان عليها في الموصل.. أما السمك المزكوف فربما..

وقال عبد العزيز:

- سنسعد في أن نتناول الغداء معاً..

نقرت برأس سبابتي على ساعتي وقلت:

- اليوم بالذات أجدني مرغماً على الاعتذار.. ثمة أحد كبار المستوردين سيزورني في المكتب، وقد أظل معه الساعات الطوال.. إذا تمكنت من إقناعه بوجهة نظري.. فمعنى هذا أننا حققنا صفقة العمر..

قال بدهشة:

- بهذه السرعة يا عدنان؟

قلت باستحياء:

- الأرزاق بيد الله..

❀ ❀ ❀

غادرت إلى الموصل لزيارة زوجتي وأولادي وتحدثت معهم عن التفاصيل الجديدة، وعرضت عليهم فكرة الانتقال إلى بغداد لكي أكون قريباً منهم ومن عملي في الوقت نفسه..

رفع الأولاد عقيرتهم بالشكوى والاعتراض وقالوا بأنهم لن يفرطوا بحيّهم ومدارسهم وأصدقائهم لأي من الأسباب.. أما الأم فإنها تركت الخيار لي.

ولأيام عديدة وجدت نفسي في دائرة الحيرة والقلق.. ثم ما لبثت كعادتي أن مارست لعبة التعليق الزمني للمشكلة قائلاً في نفسي: فيما بعد، قد أحسم الموضوع وأرتاح..

عدت ثانية إلى بغداد واتصلت من المكتب بعبد العزيز:

- *سآتي بعد ساعة لكي آخذك إلى المكتب.. كيف حال العروس؟*

قال:

- *بخير والحمد لله..*

أحسست أن كلماته خرجت من فمه متباطئة على غير المعتاد، وأن نبرته تنطوي على قدر من عدم الارتياح.. وربما الحزن.. لا أدري.. وعندما ذهبت إليه، تأكد لي حدسي إلى حد كبير.. لم ألحظ في وجهه ملامح الفرح والبهجة التي عهدتها فيه منذ تعرفت عليه.

أردت أن أسأله لكنني ترددت.. وقلت في نفسي: لعله خلاف عارض مما يحدث بين المتزوجين حديثاً.. أو لعل إخوته الذين لم يرتاحوا لزواجه من عائلة فقيرة أثاروا في طريقه المتاعب والمنغصات.. ولعل المسألة - أولاً وأخيراً - سحابة صيف وتزول، كما يقولون..

حدثته باستفاضة عن لقائي الأخير بالمستورد الكبير، وكنت أتوقع أن يصغي إليَّ جدياً وأن يبارك محاولتي كعادته.. لكنني لم أحظَ بشيء مما توقعت.. ورحت أضغط التفاصيل وأنا ألحظ شروده وعدم متابعته للأرقام المغرية التي حفظتها عن ظهر قلب.. لحظت أيضاً شحوباً مشوباً بالانقباض والكآبة يكسو وجهه.. وقال وكأنه لم يستمع لكلمة مما كنت أقول:

- *أريد أن أتعرف على مقبرة الشيخ معروف!!*

دهشت لطلبه، ووجدتني للحظات قبالة المفارقة الحادة بين الحياة والموت.. بين الكدح البشري.. والتكاثر بالأموال والأشياء.. وبين الانسحاب المفاجئ إلى التجرد والتلاشي.. وهممت بأن أقول شيئاً.. ويبدو أنه لحظ آثار الاستياء والدهشة على ملامحي فقال مستدركاً:

- *مجرد زيارة قصيرة لبقعة عريقة من بغداد.. لقد قرأت عنها الكثير..*

- ولكن..

نهض قائماً بنفاد صبر.. وسحبني من يدي وهو يقول:

- *لقد وعدتني بأن تريني كل آثار المدينة.. وأحيائها.. فلا تبخل علي بهذه!!*

ووجدتها فرصة للتعبير عن احتجاجي:

- أنا عند كلمتي، ولسوف أطلعك على كل شيء. . ولكن مقبرة الشيخ معروف؟! ثم ألا ترى معي أن الوقت أخذ يضيق علينا الخناق، وأن علينا أن نتخذ قرارنا النهائي بصدد عروض المستورد؟

أجاب وهو يخطو نحو الباب الزجاجي الواسع:

- فيما بعد. . فيما بعد. . أما الآن فثمة رغبة ملحّة في أن أشاهد مقبرة الشيخ معروف. .

نهضت أنا الآخر وقلت له دون أن يفارقني استيائي أو دهشتي:

- لك ما تشاء. .

❁ ❁ ❁

أشار إلى بقعة خالية لا تتجاوز الأمتار العشرة لم تشغلها القبور وقال وهو يلقي ابتسامة غريبة زادت من دهشتي:

- هذه!!

رفعت صوتي على غير المعتاد:

- ماذا؟

قال بالنظرة نفسها وبالمزيد من الإصرار:

- هذه أريدك أن تشتريها لي بأي ثمن يعرض عليك. .

أردت أن أقول شيئاً ولكنه قاطعني بإشارة من يده:

- *لا تتردد يا عدنان.. ادفع أي ثمن يريدونه وبأسرع ما تستطيع.*

ووجدت نفسي فجأة وسط دوامة من التساؤلات.. لقد تجاوز الرجل فيما خيل إلي تنفيذ رغبته في مشاهدة إحدى المعالم العتيقة لمدينة بغداد باتجاه شيء آخر تماماً قد ينطوي على احتمالات شتى ليست في الحسبان..

وشيئاً فشيئاً أدركت أن صرفه عن رغبته هذه أمر مستحيل تماماً، وأن استمراري في العمل معه ربما يكون مرهوناً بتلبيتها!! وقلت في نفسي: فيما بعد قد أعرف كل شيء.. أما الآن فإن علي أن أنفذ.. والتفت إليه فإذا بالابتسامة إياها تزداد عمقاً على خطوط وجهه، وقلت:

- *سأحاول.. ولكن ليس قبل أن نحسم الأمر مع المستورد الذي سيزورنا عصر اليوم..*

أجاب دون اكتراث:

- *اتفق معه بالشروط التي ترتاح لها.. أما أنا فلا أريد أن أدخل طرفاً ثالثاً!*

- *ولكنها شركتك!!*

نظر برضا إلى البقعة الخالية في مقبرة الشيخ معروف وقال وهو يرنو إلى البعيد:

- *صفقتي الكبرى هي هذه!! إنني أحلم بأن أدفن هنا يا عدنان. .*

* * *

وخلال أيام قلائل تمت الصفقة مع المستورد الكبير، وأنجزت شراء الأمتار العشرة من المقبرة. . كنت أحس بارتياح عميق وكأنني قد أزحت عن كاهلي همين كبيرين. . وتلقى عبد العزيز نتائج مساعيَّ بارتياح ملحوظ هو الآخر. . رغم أن ملامح القلق والحيرة والاكتئاب لم تبرح وجهه. . وفي نهاية الأسبوع قررت العودة إلى الموصل لزيارة أهلي وأولادي. . ولترتيب تفاصيل الرحلة الموعودة للعروسين!! وقلت له وأنا أودعه:

- *سأعود إليكما إن شاء الله بعد يومين أو ثلاثة لكي أصطحبكما إلى الموصل وأريكما ربيعها الجميل. .*

قال وهو يحاول بصعوبة أن يرسم ابتسامة ما على وجهه:

- *ووجبة (الكبب) التي وعدتني بها؟*

ارتحت لاسترساله وقلت بفرح:

- *ستكون على رأس القائمة. . ولكن لا تنسَ أن قاموس الأكلات الموصلية لا يقل غنى وتنوعاً عن قاموس الرباط. .*



ما لبثت أن قفلت عائداً إلى بغداد مع بداية الأسبوع التالي، وبمجرد وضع حقيبتي على أرض الغرفة في الفندق.. هرعت إلى الهاتف للاتصال بعبد العزيز والاتفاق على موعد السفر إلى الموصل.. لكن أحداً لم يرفع السماعة.. حاولت مرتين وثلاثاً دون جدوى.. أخذ القلق يتسرب في مفاصلي وشراييني بهدوء.. لأنني أعرفه جيداً.. لا يغادر بيته الأنيق إلا بمعيتي.. حتى ولو اقتضاه الأمر المكوث فيه الأيام الطوال.. وقلت في نفسي: إن لم يكن هو موجوداً في البيت، لسبب أو آخر، فإن زوجته هناك بكل تأكيد.. ولكن لماذا لا يجيبني أحد؟

لم أطق صبراً وأنا أحاول مع الهاتف بعصبية، فهرعت إلى سيارتي وانطلقت بها إلى بيته.. قرعت جرس الباب فلم يفتح لي أحد.. أعدت المحاولة دون جدوى.. صرخت.. إنني عدنان جئت لضرورة عاجلة.. فلم يرد علي أحد.. رحت أقرع الباب بكلتا يدي ولا من مجيب!!

اجتاحتني حيرة لم أعرف طعمها المرّ عبر حياتي الماضية، وحاولت أن أهدئ شكوكي بمحاولة إقناع نفسي، بأن الرجل وزوجته قد يكونا استقلا سيارة أجرة وراحا يطوفان بها في شوارع بغداد.. وشعرت بشيء من الارتياح وأنا أتذكر ملله وضيقه يوم أمس، وقلت في نفسي: لعلهما وراء رغبته المفاجئة هذه بالتجول.. ولكن لماذا لم يتصل بي؟..

بمجرد وصولي إلى المكتب اتصلت به على الهاتف كرة أخرى.. دون أن أتلقى جواباً.. لم أستطع البقاء في المكتب فعدت إلى الفندق واجتزت قيلولة صعبة لم أستطع أن أحظى فيها بدقيقة واحدة من

النوم، ثم ما لبثت أن هرعت إلى بيته، ولكنني فوجئت مرة أخرى بالباب الموصد والصمت المخيم..

ولأكثر من ساعتين انطلقت بسيارتي أضرب في شوارع بغداد على غير هدى.. ثم ما لبثت أن تذكرت بأن محاولتي هذه لا معنى لها.. فاجتزت جسر الشهداء صوب جانب الكرخ.. ويممت شطر مقبرة الشيخ معروف ثم ما لبثت أن غادرت السيارة لكي أجوس بين شواهد القبور بحثاً عن البقعة الخلاء.. فلم أجد له أثراً هناك..

أخذ القلق يحاصرني أكثر فأكثر.. وموجات من الكآبة والانقباض تجتاحني بين لحظة وأخرى.. ووجدتني أهرع إلى مراكز الشرطة والمستشفيات أسأل عن رجل مغربي وزوجه.. وأقدم الملامح والمواصفات، فلا أحظى بشيء.. كلهم يحركون رؤوسهم ببطء إعراباً عن أسفهم، وأنا أغوص أكثر فأكثر في بئر لا قاع لها.. وأحسست للحظات أنني ضائع، ولعنت الجريدة التي قادني إعلانها إلى هذه المتاهة، وتمنيت أن لو أعود مسرعاً إلى بيتي وزوجتي وأولادي لكي أحظى بالأمن والسكينة، وأسترجع فرحي القديم، وأخلف ورائي كل الحسابات والصفقات التجارية ورغبات عبد العزيز المترعة بالغرابة والمفارقة..

فجأة خفق قلبي وسط إحساس بأنني أوشك على الإمساك بالمطلوب عبر دوامة الحيرة والتوجس والضياع هذه، وصرخت بصوت عالٍ وأنا أنعطف بسيارتي بسرعة: السفارة المغربية!!

اجتزت صالة الاستعلامات وأنا ألهث.. وحاول الموظف الذي يقلب جوازات السفر خلف مكتبه أن يمنعني فقلت بتوسّل:

- *حالة مستعجلة، ولابد من مقابلة القنصل.*

أصر على منعي وهو يقول:

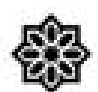
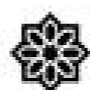
- *أعطني المعلومات وانتظر في صالة المراجعين ولسوف أتصل بك بعد قليل..*

وما لبث أن جاءني بعد نصف ساعة لكي يقول: إن القنصلية لا تعرف أساساً رجلاً مغربياً بهذا الاسم، وأن كشف الأسماء عبر الفترة الأخيرة لا يتضمن اسمه على الإطلاق..

غادرت المكان وأنا ألعق جراحي.. وقلت في نفسي: ها أنت ذا تنحدر صوب الهاوية.. وليس ثمة مهرب من مسؤوليتك عن غياب الرجل وزوجته.. وتذكرت، وأنا أحاول أن أتشبث بأية قشة للخروج من اللجة والعودة ثانية إلى البرّ.. الخطوط الجوية المغربية.. فلعل لديهم ما يقولونه..

وما لبث الجواب الذي لم يدر في خلدي على الإطلاق أن اخترقني كنذير السوء:

- *لقد غادر بغداد صباح اليوم على الطائرة المغربية عائداً إلى الرباط..*

التحدي

كان الليل يوغل أحياناً ونحن ـ بعد ـ في الطرقات نمارس فنوناً من اللعب التي تعتمد على القدرة الجسدية والتحمُّل. . ولم يكن أكبرنا عمراً يتجاوز الخامسة عشر. . حتى إذا طالنا الإعياء تحلّقنا عند عتبة هذه الدار أو تلك، وانغمرنا في رواية القصص والأحاديث. . وكنا نجد لذة بالغة ونحن ندلف إلى عالم الغرائب والأعاجيب. . كل يقدم ما عنده محاولاً أن يشد اهتمام رفاقه ويضعهم في بؤرة التوتر. . وكان بعضنا ـ لهذا السبب بالذات ـ يبالغ في تجاوز المعقول إلى ما وراءه، ويحاول أن يدخل بنا دائرة الرعب حيث تمتزج المتعة بالدهشة بالخوف الذي يتسرب إلى أوصالنا فيصيبها بالرجفة!!

أدمنا هذه الحالة رغم ما كانت تسببه لنا من بؤس ومتاعب. . كان الواحد منا يرجع إلى بيته وهو يرتجف هلعاً. . كانت كل حركة أو نأمة تضعه في دائرة الرعب الذي يجثم على الأنفاس، والويل لمن يصل البيت بعد أن يكون الأب والأم والإخوة والأخوات قد عزلهم النوم عن الدنيا. . تلك كانت أصعب اللحظات، أن ندخل الفناء وسط إحساس قاتل بالوحدة والتوجس، وتوقع الويل النازل في أي لحظة ومن أي ركن في الدار.

كنا نتجاوز تناول عشائنا ونضحي به، بل حتى قضاء حاجتنا، لكي نسرع بالتسلل إلى المنام، بحثاً عن شيء من الأمن الضائع.

في الصباح نكون قد نسينا هذا كله.. حتى إذا جاء المساء وخرجنا للعب كرة أخرى، وأصابنا التعب، تحلقنا في هذا الزقاق أو ذاك، وأعدنا الكرة، محاولين أن نندفع أكثر فأكثر باتجاه الإحساس المتوتر بالخوف الذي لا يطاق.

جاء الدور علي يوماً.. قلت وأنا أتلقى سيّال الرعب يسري في أوصالي بهدوء فأحاول أن أشكمه..

- *هل بمقدور أحدكم أن يذهب منفرداً إلى مقبرة المدينة في (باب لكش) ويظل هناك حتى الصباح؟*

نظر بعضهم إلى بعض وقال أحدهم بشيء من الاستخفاف وهو يشير إلى الجدار الشمالي القريب من المقبرة:

- *إنها ليست بعيدة على أي حال.*

وقال آخر:

- *طالما رأيت العائدين من المقاهي يجتازونها في ساعات متأخرة من الليل.*

قلت وأنا أبتلع ريقي بصعوبة:

- *ليس في الساعة الثانية حيث تسلم الموصل نفسها للسكون وينام الجميع!*

- مع ذلك.

- ولم لا تجرب إذاً؟

حاول أن يغطي تراجعه بعذر مقبول:

- إنني أكره أن أجتازها صباحاً لأنها تحاصرني بالكآبة، والتجول في المقابر ليس من هواياتي المفضلة..

وقال آخر يخاطبني:

- كأني بك تريد أن تقول شيئاً.. هيا.. ودعونا من الجدل العقيم.

قلت:

- كلكم تعرفون جيداً (محمد علي) الملقب بالمجنون.

أجاب أحدهم:

- كيف؟ وهو يسكن في زقاق الشماعين قريباً من باب لكش.

وواصلت حديثي:

- لم يكن كذلك قبل عشرين عاماً.. ولكن شجاعته المثيرة للإعجاب قادته إلى الجنون..

- مسكين..

قالوا بلسان واحد.. وأردفت..

- يوماً تحداه عدد من أصدقائه الذين يحسدونه ويغارون منه، أن يجتاز مقبرة باب لكش منفرداً بعد الثانية ليلاً.

أجابهم بلا أبالية:

- وماذا في ذلك؟

استفزوه أكثر عندما قالوا:

- قبالة الوحشة والليل وشواهد القبور يتحول أبطال النهار إلى خفافيش!

- ليس محمد علي على أي حال!

- الكلام شيء يا أبا جاسم والفعل شيء آخر!

- وإذا قلت لكم: إنني قادر على تنفيذ المطلوب؟!

قالوا وقد لووا شفاههم ليزيدوه توتراً:

- لا تستطيع..

وفي حمى الدفاع عن كرامته كبطل للزقاق يشير إليه الجميع بالإعجاب والتقدير قال:

- سأفعل وسترون.

قال أحدهم:

- *في الثانية بعد منتصف الليل ولن يكون معك أحد!*

أجاب بالإصرار نفسه وهو يغمزهم جميعاً:

- *وهل ثمة في الزقاق من أصطحبه معي إلى هناك!!*

ابتلعوا الوخزة القاسية، وتحوّل استفزازهم إلى رغبة جارفة في إلحاق الهزيمة به وقال أحدهم:

- *لقد شبعنا كلاماً يا أبا جاسم.. نريد أفعالاً..*

- *سأفعلها.. أقسم لكم..*

وجاءهم في اليوم التالي وهو يبتسم.. كانت تكسو وجهه ملامح الانتصار الممتزج بالسخرية والاستعلاء.. ولم يصبر حتى يقترب منهم فنادى من بعيد:

- *لقد فعلتها أيها الرفاق!*

تبادلوا نظرات ذات معنى وقالوا بصوت واحد:

- *كيف؟*

- *ذهبت إلى المقبرة بعد الثانية ليلاً وقضيت هناك أكثر من ساعة وأنا أتجول بين القبور.. لم يكن معي أحد على الإطلاق.*

وعلق أحدهم بسخرية:

- *أنت تقول هذا!*

وقال آخر:

- ليس أسهل على الإنسان من أن ينسج من أحلامه وخيالاته ما يوهم به الآخرين..

أردف ثالث:

- لسنا مغفلين إلى الحدّ الذي تتصوره..

كتم محمد علي انفعاله، واقترب أكثر منهم وهو يقول:

- أقسم بالله إنني قضيت ليلة أمس بين القبور.

- بطل والله يا أبا جاسم..

وقال آخر..

- سمعنا عنك الكثير، ولا بأس أن يضاف هذا إلى سجل بطولاتك.

فردّ مدافعاً عن موقفه:

- قلت لكم: لقد ذهبت بمفردي ولم أرجع حتى تلاشت ظلمات الليل.

صاحوا بصوت واحد:

- نريد دليلاً يؤكد صدق ما تقول..

أسقط في يد محمد علي.. فوجئ بشيء لم يكن في حسبانه، كاد أن يأتي على مغامرته الفريدة ويلغيها من الحساب!

كيف يستطيع أن يؤكد لهم بأنه ذهب فعلاً إلى هناك؟

وهل يكون بمقدوره أن يأتيهم بشاهد أو دليل؟

تملكته الحيرة، وراح يجيل نظره في وجوههم، فأحس بحصار القهر والانكسار، واجتاحته ـ للحظات ـ عاصفة من الغيظ والكراهية، تمنى معها أن يهجم عليهم جميعاً ويكيل لهم الضربات.. لكنه ما لبث أن تراجع في اللحظة الأخيرة وأحس بأن ذلك لم يكن يليق به كبطل ذي اسم في الزقاق، وأنهم أصدقاؤه على أي حال، وليس برجل من يستخدم قدرته الخارقة ضدّ إخوته وأصدقائه..

تخلى عن شيء من اعتداده وقال بنبرة مبطنة بالرجاء:

ـ *ما الذي تريدونني أن أفعل؟*

أجاب أحدهم:

ـ *علامة ما.. أي دليل ملموس تتركه يؤكد بالقرينة القاطعة أنك كنت هناك بعد منتصف الليل..*

ضيّق محمد علي ما بين عينيه وهو يعمل فكره في إيجاد دليل مقنع.. ومرّ الوقت بطيئاً متثاقلاً دون أن يصل إلى شيء.. وصاح أحدهم وكأنه اكتشف شيئاً ذا قيمة بالغة:

ـ *لقد وجدتها.*

أجفل محمد علي بعض الشيء، بينما واصل الآخر بحماسة ملحوظة:

ـ *تدق مسماراً نعطيك إياه على أحد شواهد القبور..*

مندفعاً بردّ فعل مبالغ فيه قال محمد علي:

- *عشرون مسماراً إذا أردتم.. لن أدع شاهداً واحداً دون أن أضرب مساميري فيه.. آتوني بحفنة منها وسترون..*

ابتسم الآخر وقال بخبث:

- *مسمار واحد يكفي.. لا نريد أن نجرّبك.. فقط نريد أن نتأكد..*

وصاح الزملاء:

- *هذه الليلة يا أبا جاسم.. هذه الليلة.*

رد محمد علي بالاندفاع نفسه:

- *هذه الليلة.. ولسوف ترون!*

وانطلق محمد علي بالمسمار والمطرقة الصغيرة إلى المقبرة وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ليلاً.. وأوى الناس إلى دورهم وأقفرت الأزقة الجانبية من المارة.. أما الشارع العام الذي يوغل جنوباً ويحاذي المسافة الشرقية للمقبرة فقد بدا موحشاً تماماً.. ثمة أضواء خافتة تنبعث من أعمدة الكهرباء المتباعدة.. لا تكاد تفعل شيئاً إزاء الظلمة المتزايدة..

ورفع محمد علي رأسه إلى السماء كأنه يطلب العون من النجوم المنتشرة في الآماد النائية، ولكن دون جدوى.

اجتاز الفتحة الضيقة في الجدار المهترئ ودلف إلى المقبرة.. كانت الظلمة أشد قتامة.. وحاول أن يختبر قدرته على الإبصار.. فحرك المطرقة بيده محدّقاً فيها، فلم يكد يتبينها تماماً.. فجأة أحس بالوحدة تحاصره وبوحشة لم يعرفها من قبل، وأخذ دبيب من الخوف يجتاز جلده إلى الداخل فيصيبه بقشعريرة خفيفة..

تنحنح بصوت عال محاولاً أن يطرد هواجسه وقال في نفسه: لم تكن هكذا يا أبا جاسم، فامضِ إلى هدفك ودق المسمار على أحد الشواهد ثم ارجع إليهم لكي تفقأ به عيونهم بعد أن يتأكد لهم أنك نفذت ما أرادوه وأنك لست جباناً مثلهم.. ولن يجرؤ أحد منهم ـ بعدها ـ على أن يغمزك بشيء!!

قطع خطوات أخرى.. وتعثر بكومة من الحجارة المعشوشبة فاجتاحته القشعريرة كرة أخرى.. وقال وهو يرفس قطعة منها: امض يا أبا جاسم، امض فإن تراجعك سيقودك إلى السقوط، ولن تسمح لنفسك بهذا قبالة شرذمة من الجبناء..

وحاول وهو يوغل باتجاه أقرب شاهد أن يستجيش كل ما في حقيبته من قوة، عن طريق استعادة أمجاده القديمة: مآزق ومعارك وتحديات كان يخرج منها منتصراً.. ولم يهزم مرة واحدة في حياته..

مرقت سحلية صغيرة قريباً منه ومس جلدها البارد جانباً من قدمه اليسرى.. فعاودته الرجفة وقال: اللعنة عليك أيتها الحشرات القذرة.. ما الذي تفعلينه أيتها العاهرة في هذا الليل العميق؟!

ونعق بوم من مكان ما بصوت أجش، فتوفزت أعصابه وقال: حتى أنت أيها اللعين؟

أصبح على بعد خطوات من الشاهد.. وتحسس المسمار جيداً، ولوح بالمطرقة كأنه يجابه بها المجهول وقال: دقائق وينتهي كل شيء، ولسوف أري الصبية من يكون أبو جاسم!!

وتعثر مرة أخرى بكومة من الحجارة وكاد يسقط أرضاً لولا أنه تشبث في اللحظة الأخيرة بحافة الشاهد واستعاد توازنه، لكن القشعريرة إياها ضربته بعنف، وقال: لا بأس، يبدو أنها لا تريد أن تكف عني..

أمسك بالمسمار جيداً ووضع حافته المدببة متعامدة مع الشاهد، ولوح بالمطرقة، وأنزل الضربة الأولى فلم تصب المسمار، حاول مرة ثانية وثالثة ولكن عبثاً.. كانت يده ترتجف وتوقف عن المحاولة لحظات ريثما يستعيد توازنه المفقود، وبذل جهداً استثنائياً لحصار القشعريرة وطردها.. ولكن دون جدوى.

- *سأنزل المسمار قليلاً باتجاه أسفل الشاهد فلعلي أسيطر عليه..*

ورفع المطرقة لكي ينزلها فيه فزعقت البومة مرة أخرى من مكان ما في المقبرة.. فعاودته الرجفة ولكن بشكل أكثر ضراوة وعنفاً هذه المرة، ونادى في الظلمات بصوت متيبس.. ضربة أو ضربتان يا أبا جاسم وينتهي كل شيء..

أهوى بالمطرقة على حافة المسمار.. أعقبها بأخرى وأحس بقدر من الارتياح وهو يرى المسمار يجتاز صلابة الحجر ويوغل في الشاهد.. هذا يكفي.. قال في نفسه.. وكل شيء له نهاية والبقية تأتي..

أراد أن يعتدل قليلاً استعداداً لمغادرة المكان فأحس كما لو أن يداً ما.. يداً قوية.. صلبة.. تمسك بحافة ثوبه.. وتمنعه من مغادرة المكان.. وقال في آخر محاولة لاستجاشة كل ما تبقى لديه من مقاومة: اللعنة على الأوهام.. وتحفز للاعتدال.. ولكن اليد القاسية الصلبة ظلت متشبثة بردائه..

اجتاحته القشعريرة مرة أخرى.. قشعريرة امتدت كالنار إلى الهشيم المتيبس فراح يخفق كسعفة النخل في ليالي القر.. وبذل محاولة مستميتة للإفلات ولكن عبثاً.. وأحسّ بأن شعر رأسه يقف واحدة إثر أخرى، وبأن قدميه ترتجفان وأنهما ربما بعد لحظة أو لحظتين لن تقويا على حمله.. وحدّق جيداً أسفل الشاهد بحثاً عن اليد التي تمسك ثوبه وتمنعه من الإفلات، فلم ير شيئاً.. كان الظلام مطبقاً تماماً، وكانت قدرته على الإبصار قد تضاءلت إلى درجة الصفر، وأدرك، وقشعريرة أشد عتواً من سابقتها تكتسحه تماماً.. أنه لن يقدر على الفرار، وأن قوة ما، كائناً شريراً، عفريتاً من الجان يمسك به، وأنه لا مفرّ.. ووجد نفسه يصرخ بما تبقى لديه من طاقة: لقد أمسكوني.. ثم ما لبث أن وقع مغشياً عليه..

انتظره أصحابه في اليوم التالي بلهفة ونفاد صبر.. فلم يأتِ، وقال قائل منهم: إنه الآن في بيته يغط في نومه، ولسوف يجيء بعد ساعة أو ساعتين لكي يكذب علينا مرة أخرى.

وقال آخر:

- هذه المرة لن يقدر.. ولسوف يكون المسمار شاهداً على صدقه أو ادعائه..

وكأنما تذكر صاحبه شيئاً فقال وهو يقذف كلماته بسرعة وارتباك:

- إلى المقبرة يا زملاء، فلعلّنا نعثر على الدليل..

ضحك الأول وقال وهو يمط شفتيه ازدراء:

- هل بمقدور أحد أن يجد المسمار وهو يتجول بين عشرات بل مئات من شواهد القبور؟

- والحل؟

تساءل زميل ثالث..

أجاب:

- ننتظر أبا جاسم فعنده الخبر اليقين وبمقدوره أن يرينا بنفسه الدليل على شجاعته!!

ومرت ساعة أخرى ولم يأت محمد علي.. وبدأ الشك يساورهم، ثم ما لبث أن تحول إلى إحساس بالقلق وعدم الارتياح وقالوا بلسان واحد: لنذهب إلى بيته فلعلّنا نجده هناك.. ولم يجدوه هناك.. ونظر بعضهم إلى بعض بدهشة وقال أحدهم:

- فأين يكون إذاً؟

وشوهد محمد علي مساء اليوم نفسه وهو يجتاز الزقاق.. كانت ثيابه ممزقة والرمل الرطب يلطخ حافتها السفلى.. وكان شعره الكثيف مبعثراً بغير نظام.. أما وجهه فقد اكتسى بصفرة الموت.. وكانت عيناه زائغتين كأنما هو غير قادر على الإبصار بهما أو التمييز بين المرئيات..

- ها هو ذا أبو جاسم..

هتف أحدهم.. وسرعان ما التموا عليه.. لم يتبينوا تماماً تفاصيل الحالة التي صار إليها.. فما كان يهمهم هو هل أنه دق المسمار على الشاهد واجتاز التحدي بنجاح؟

وسأله آخر وهو يضع يده برفق على كتفه:

- هل دققت المسمار يا أبا جاسم؟

وقال ثالث:

- حدد لنا مكانه.. ولسوف نذهب اللحظة للتأكد..

وقال رابع:

- لم يعد ثمة مجال للتقولات أو التخمينات، إما أن يكون أبو جاسم بطلاً.. أو..

ولم يتم كلامه.. لأن محمد علي لم يجب أياً منهم، ولم يكن مستعداً على ما يبدو لأن يقول كلمة واحدة، وظل يجيل فيهم عينيه الزائغتين دون أن يحرك شفتيه.. ثم ما لبث أن اخترقهم بهدوء لم يعرف عنه أبداً.. ومضى..

الوهم

رغم طول المدة التي قضيتها في التعليم الثانوي والتي أوشكت على بلوغ الخمسين عاماً، ورغم انهيار حالتي المعيشية والاجتماعية بسبب تضاؤل القدرة الشرائية لراتبي الشهري المحدود قبالة الارتفاع المتزايد لأسعار الحاجيات والأشياء، فإنني ظللت متشبثاً بشيء واحد، معتزاً به أشد الاعتزاز: أنني مراقب امتحانات من نوع نادر، لم تفلت منه محاولة غش واحدة، عبر خدمته الطويلة، بل لم يحدث وبمرور الوقت، أن سوّلت لطالب ما نفسه بأن يغش في قاعة يراقب فيها ذو النون عبد الحميد!! أو يتولى الإشراف عليها..

كانت عيناي تحدقان كالصقر في وجوه الممتحنين وانحناءات أعضائهم، وتتحسس من بعيد، ودون أي ضرورة للاقتراب، ما إذا كان الطالب مستسلماً لنظراتي، مسلماً بحضوري، أو أنه يتشبث ولو بخيط رفيع.. أو ثغرة ما، قد يتلقى منها ما يعينه على النجاح أو يقرّبه من حافته.. كنت ـ بحكم المران ـ أملك شفرة سرية تعطيني مفاتيح كل حركة أو نأمة تصدر عن هذا الطالب أو ذاك، فكنت أسارع في حصارها قبل أن يقع المحذور، وكنت أرفع ـ دائماً ـ شعاري المعروف (الوقاية خير من العلاج) أحدث به المدير والزملاء، أردّده في بيتي مع زوجتي وأولادي.. أن ترحم الآخرين هو أن تقطع عليهم سبل

الإغواء.. ترغمهم على سلوك الطريق المستقيم، سيجدون أنفسهم ـ بمرور الوقت ـ خارج دائرة الشيطان، حتى لو كان أحدهم لا يؤمن بأي قيمة جادة، فإنه سيجد نفسه بسلطة الرقابة الصارمة مرغماً على سلوك المحجة..

طالما قال لي أحد زملائي: إن هذا وحده لا يكفي، فما لم يملك المرء حصانة داخلية تصده عن الخطيئة، فإن ألف عين لن تقدر على ضبطه وهو يقترف الإثم، أو تصده عنه وهو ينزلق إليه.

انطلاقاً من قناعتي الراسخة كالجبال.. ما كنت أرغب في مناقشته مكتفياً بالتذكير بمبدئي المعروف «الوقاية خير من العلاج» أقولها بحسم محاولاً إنهاء النقاش..

- *ولكن العلاج ضروري هو الآخر، قد تجعله بعض الحالات أحياناً يسبق الوقاية..*

- *لا أفهم لغة اللف والدوران، والقول الفصل لما يجري في الميدان.*

وكنت بذلك أضطره على السكوت وأنا أتذكر البضعة والأربعين عاماً التي لم تشهد حالة غش واحدة في قاعة أقف فيها، وقد تمركزت في عيني كل قدراتي الحسية والذهنية.. ولم يعد يخترقني ثمة شيء في العالم عبر ساعات الامتحان.. ولم أسمح لنفسي لحظة واحدة بالاسترسال في تيار الوعي الباطني، أو حتى باستعادة ذكرى سعيدة أو لحظة حزن موغلة في أعماق النفس..

كان بعض المدرسين يغارون مني، وكانوا يحاولون، بطريقة أو أخرى، التعتيم على تألقي في سوح الامتحانات.. وقد يلجأ بعضهم إلى الدس علي وتشويه سمعتي، بأنني طالما تغاضيت عن العديد من المحاولات لكي لا يقال: إن هناك من تحدثه نفسه بالغش في حضوري.. وكان بعض المدراء ـ لسبب أو آخر ـ يصدقون شائعات كهذه كانت تحاصرني بين الحين والحين فتكدر خاطري ليوم أو يومين، ثم ما ألبث أن أغيبها في طبقة ما من نفسي مواصلاً اجتياز رحلتي صوب ما كنت أحلم به.. أن أكمل نصف قرن من الخدمة، وألا تكون صحيفتي عبر نصف القرن هذا، قد علقت بها ذرة واحدة من غبار..

استدعاني المدير يوماً وأعاد على مسامعي ما يشاع عني.

- *تلك هي سنة الحياة.*

قلتها باعتداد.. وبرغبة جارفة بإنهاء الحوار بأقل الكلمات.. ثم أردفت..

- *والعبرة بالنتائج!*

تساءل المدير عن المقصود فأجبت:

- *إنه لأمر طبيعي بالنسبة لمن اخترقوا أكثر من مرة، بمحاولات الغش، أن يلطخوا سمعة مدرس لم يخترق في حياته التعليمية مرة واحدة!!*

كان المدير الجديد يحسدني هو الآخر، لأنه هو شخصياً، اخترق أكثر من مرة عبر عمله التعليمي، ولذلك قال:

- *إننا نقدر جهودك أيها الأستاذ، ولكن يتحتم عليك أن تكون حذراً من الثقة الزائدة..*

امتعضت والحق يقال، ولكنني أصبحت بقوة المران أعرف كيف أخفي انفعالي وقلت:

- *ليس مجرد ثقة زائدة كما يبدو للوهلة الأولى، ولكنه شبكة من الممارسات التي تقتضي مشقة وصبراً، وهي ـ قبل هذا ـ إحساس بالمسؤولية، وخائن لمهنته من لا يملك هذا الإحساس!*

وحان الموعد الدوري لامتحانات البكالوريا مع حلول الأول من حزيران، وتم اختياري ـ كالعادة منذ أكثر من عشرين عاماً ـ مراقباً أقدم لإحدى القاعات الكبرى.. لم يكن قد بقي أمامي سوى عام أو بعض عام لإكمال رحلة الخمسين عاماً التي كافحت من أجل بلوغها بسجل أبيض لم يمسسه سوء..

كنت أحس أن عليَّ بذل جهد استثنائي لأن لدغة الأفعى قد تأتي في اللحظة الأخيرة، ومن حيث لا يتوقع إنسان.. وكنت أحدث نفسي، وأنا أدلف إلى القاعة صبيحة اليوم الأول: ترى لو حدث وأن وقع المحذور، أيكون بمقدوري أن أزيل مرارته عبر سنيّ العمر المتبقية؟

من أجل ذلك دعوت إلى عقد اجتماع استثنائي لمجموعة المراقبين التي كانت تعمل بمعيتي في القاعة نفسها:

- *عليكم التزام أقصى درجات الحذر.*

قلت لهم..

نظر بعضهم إلى بعض وكأن ما أقوله هو من الأمور الاعتيادية التي لا تقتضي حتى مجرد التذكير..

- *إنها سمعتكم أيها الزملاء!*

همس أحد المدرسين في أذن جاره..

- *إنه يريد أن يعلق هزيمته المحتملة على مشاجبنا!*

فأجاب الآخر:

- *قليلاً من حسن الظن يا رجل.. والمهم أن نتعاون جميعاً من أجل إنجاز المهمة بسلام..*

ودوى صوتي مرة أخرى:

- *كنت أقول دائماً بأن الوقاية خير من العلاج..*

ردوا علي جميعاً:

- *بكل تأكيد.*
- *فهل ثمة ضرورة إذاً لأن أعطيكم صمامات الأمان، أو أحدثكم عنها؟*

نظر بعضهم إلى بعض مرة أخرى وكأنهم لم يفقهوا شيئاً، فأدركت ما كان يجول في خواطرهم فأردفت:

- *هنالك في الحقيقة منظومة من الأفعال وردودها لدى الطلاب، وإذا أحطتم بأبعادها النفسية*

والمادية علماً، وقفتم بالمرصاد لأي محاولة ماكرة، وقضيتم على الفتنة في مهدها . .

قالوا جميعاً وهم لا يزالون يضطربون في دائرة الغموض . .

ـ **إن شاء الله . .**

على أي حال لن تكونوا وحدكم . . لن يكون أي واحد منكم بمفرده عبر ساعات المراقبة . . سأكون حاضراً معكم جميعاً، مع كل واحد منكم، وسأبذل جهدي في معاونتكم طبعاً من أجل اجتياز المهمة بسلام . .

نوع من الدهشة الممتزجة، ربما بشيء من اللا أبالية والامتعاض، غمرت وجوه بعض المدرسين، فليست المسألة برمتها ـ في نظرهم ـ مهمة كبرى تقتضي هذا القدر المبالغ فيه من الشد النفسي والاهتمام . . ما الذي يريده ذو النون . . ؟ تساءل بعضهم ممن لا يعرفني جيداً ولا يعرف حلمي الملح بأن أجتاز رحلة الخمسين عاماً دون أن تلطخ سجلي نقطة غش سوداء . .

آخرون قدروا حرصي وأسرُّوا في أنفسهم أن يبذلوا قصارى جهدهم لمعاونتي في مهمّتي الصعبة والخروج من امتحانات البكالوريا بسلام . . فئة ثالثة كانت في منزلة بين المنزلتين، فلم يكن لديها موقف محدد . . وكانت ترى ضرورة أداء الواجب ولكن ليس في حدوده القصوى والمدرسون تطحنهم الأزمة المعاشية، وانهيار مواقعهم في المجتمع، بحيث يصير الإخلاص الزائد في العمل نوعاً من السذاجة أو الغباء .

وبدأ الامتحان. . كانت اللغة العربية ـ كالعادة ـ هي المادة الأولى، وعندما غادر آخر الطلاب القاعة، شددت على أيدي مجموعتي بحرارة وقدمت لكل واحد منهم أعمق آيات الشكر والامتنان، وقلت أخاطبهم جميعاً:

- *لقد بذلتم ما في وسعكم فبارك الله فيكم. . ها نحن نجتاز العقبة الأولى بنجاح، والبقية تأتي. .*

قال أحدهم بشيء من الاستفزاز:

- *المهم أن نجتاز الإنكليزية والرياضيات!*

لعب الفأر في جيبي. . هاجس من الكآبة والقلق، وقلت في نفسي: إن لدغة الأفعى لا تؤتمن على أي حال، وإنها قد تنفث سمها في اللحظة الأخيرة!!

لحظني الآخرون أدمدم مع نفسي فتابعوني بنظراتهم، ولكني لم أكترث لهم. كان تركيز نظري على الطلبة عبر ساعتين بكاملهما قد فصلني بالكلية عن عالمي الباطني، عن تيار وعيي المدفون في الأعماق، وها هو ذا بعد مغادرة آخر الطلبة ينتفض فجأة ويهدر كالموج الصاخب، وقلت في نفسي: لا يعقل أن أتعثر أو أسقط وأنا على بعد أمتار من خط النهاية. . وسمعتهم يقولون:

- *نستميحك عذراً. . فليس ثمة مبرر لبقائنا في القاعة.*

- *لكم أن تغادروها ولكن تذكروا أن المهمة الأكثر*

صعوبة لم يحن دورها بعد.. فهناك الإنكليزية والرياضيات و..

قاطعني أحدهم وهو يهم بمغادرة المكان:

- سنكون عند حسن الظن إن شاء الله وسنبذل ما في وسعنا.

وقال المدرس إياه بلهجة استفزازية:

- *ليس من المعقول أن نبلل ثيابنا قبل المطر!!*

وعدت للتذكير بمبدئي الثابت:

- *الوقاية خير من العلاج..*

وقال المدرس بشيء من الامتعاض:

- كان علينا أن ننفذ هذا المبدأ على أنفسنا أولاً!

تساءلت بدهشة:

- كيف؟

أجاب المدرس باستياء:

- أن نفكر عشرين مرة قبل أن نضع أنفسنا في مصيدة التدريس.

قلت وكأني أطرح مسلمة تفرض نفسها على الجميع:

- ولكن التدريس هو من أكثر المهام نبلاً في هذا العالم!

- *ليس مع الجوع والمهانة وقلة الاحترام..*

- *أعوذ بالله..*

- *نبل الوظيفة أيها الأستاذ من نبل شاغليها.. وشاغلوها أريد لهم أن يكونوا في الدرك الأسفل!!*

كعادتي لم أشأ فتح باب الجدل على مصراعيه وقلت منهياً الموضوع:

- *نحن الآن في قاعة الامتحان، إزاء مهمة يتحتم أن ننجزها بإخلاص.. هذه مسؤوليتنا جميعاً، أما المسائل الأخرى فلكم أن تناقشوها مع من يهمهم الأمر فهي ليست من اختصاصي!!*

في امتحان اللغة الإنكليزية، في اليوم التالي، جرت محاولة للغش بين طالبين متجاورين، كشفت في اللحظة المناسبة، ولم يستدع الأمر إخراجهما من القاعة، لأن أي تسرب للمعلومات لم يحدث على الإطلاق، وقلت للمراقب الذي أطفأ النار قبل اندلاعها:

- *بارك الله فيك..*

كان صوتي متيبساً بعض الشيء.. وسرت في أوصالي وأنا أذرع الممر الطويل، رجفة خفيفة مما تصورته برداً.. وعاد الهاجس المقلق لكي ينشب أظافره الحادة في جملتي العصبية التي بدا عليها التوتر والإعياء لأول مرة منذ خمسين عاماً..

احذر لدغة الأفعى، قلت في نفسي، إنك على بعد أمتار من خط النهاية فاحذر السقوط، وحاول أن تجتازها بسلام.. بعدها ستكون رحلة الخمسين عاماً قد توجت بالنجاح.. وسترتاح..

في اليوم الثالث جاء دور الرياضيات.. غادرت البيت ميمماً صوب المركز الامتحاني.. واستأجرت سيارة (تاكسي) عتيقة انطلقت بي إلى هناك وهي تئز وتنفث رشقات من الدخان الأسود.. أحسست بشيء من الانقباض في قلبي وضيق في تنفسي.. تعوذت بالله في محاولة لاستعادة سويتي النفسية، ولكن الانقباض ازداد عتمة وإحكاماً..

دخلت القاعة ورحت أوزع نظرات متوسلة إلى المراقبين.. لأول مرة في حياتي أتخلى عن إصدار الأوامر والتعليمات وأكتفي بتوزيع نظرات التوسل والرجاء..

أدرك زملائي ما الذي أريد أن أقوله.. ولكنهم لم ينبسوا ببنت شفة.. كأن عدوى الخوف من المجهول حاصرتهم جميعاً فعقدت ألسنتهم.. لكن المدرس إياه ما لبث أن اخترق جدار الصمت بلهجته الاستفزازية:

- *عند الامتحان يكرم المرء أو يهان!*

وأراد أحدهم، بقوة الخوف نفسه من المجهول، أن يبعد الكرة عن مرمى الزملاء ويضعها في شباك الطلبة:

- *هم ومدى استعدادهم للامتحان يا عبد العزيز..*

أجاب وهو يمسح نظارته بقطعة من ورق السكاير..

- *ونحن ومدى استعدادنا لملاحقة الغشاشين!*

وقلت في نفسي: إنه فأل سيئ ولكن لا بأس.. وما لبثت أن رفعت صوتي وقد أحسست بهم وهم يضبطونني متحدثاً إلى نفسي:

- *ها هي ذي الحلقة الصعبة الأخيرة.. وبعدها يكون كل شيء على ما يرام..*

- *طالما فقد اللاعبون الكبار فرصتهم في اللحظات الأخيرة هذه!*

قال عبد العزيز وهو لا يزال يمسح نظارته بورقة السكاير، وحاولت من جهتي أن أقطع الطريق عليه وأنهي الحديث فرفعت صوتي:

- *تفضلوا أيها الزملاء وليأخذ كل منكم مكانه، ها قد بدأ الطلبة يتدفقون على القاعة..*

مضت الدقائق ببطء ولكن ليس ثمة ما يدعو للقلق.. كانت عيناي تدوران بسرعة وحدّة لكي تضعا طلبة القاعة جميعاً في دائرة الحضور الصارم.. الذي لا يندّ عنه شيء.. ولعلّي تمنيت، وأنا أرمي بثقلي في هذه الجبهة، أن نقطة الضعف.. الثغرة التي قد يتسلل منها الهواء البارد ربما تكون أحد زملائي أنفسهم! ولم يخطر على بالي البتة.. أن بعضهم يعاني من حصار الجوع والمسغبة، وأن مقاومة الإنسان لها حدود، وأن منظومة القيم نفسها قد تنهار في أي لحظة وتترك الطريق مفتوحاً للبيع والشراء!!

تذكرت للحظات عبد العزيز حياوي واستياءه الدائم الذي كان يقوده أحياناً إلى الاستهتار بكل الضوابط، وتذكرت كلمته المأثورة التي

طالما رددها بمناسبة وبغير مناسبة: الجوع لا يرحم.. ولكن لم يخطر على بالي أن يمارس عبد العزيز أي قدر من التساهل في مهمته المقدسة هذه، وأنه حتى لو حدث نفسه بذلك فإن عيني المراقب الأقدم وجد الزملاء كفيلان بسد الثغرة وملء الفراغ..

وودّعتهم جميعاً بامتنان وهم يغادرون القاعة بعد خروج آخر الطلاب.. كان عبد العزيز أول المغادرين، ولم يأبه حتى بتوديعي.. كان حزيناً مهموماً كعادته.. وقلت في نفسي: لا بأس ما دامت الأمور قد سارت على ما يرام..

في مساء اليوم التالي استدعيت إلى مديرية التربية.. خمنت أن أتلقى هناك بعض التعليمات، أو أن أشارك في أحد المجالس التحقيقية ضد مراقبين من قاعات أخرى.. ومن يدري فلعلي أفاجأ بكلمة شكر وتقدير من المدير نفسه، على الانضباط المدهش في القاعة التي أشرف عليها؟!

لم يشأ المدير أن يطرح مقدمات وقال:

- *ثمة تسرب للمعلومات حدث في قاعتك.. محاولات غش واسعة النطاق، وهي حالة خطيرة لن نسمح لها أن تمر دون حساب..*

اخترقت كلمات المدير لحمي وأعصابي كالنصل الحاد.. وأردت أن أتكلم ولكن المدير، وقد كاد الغضب يخرجه عن اتزانه، أسكتني بإشارة من يده، وقال بانفعال أشد وهو يقلب أوراق عدد من الدفاتر الامتحانية:

- إننا نعرفك جيداً يا ذا النون.. يكفي أن ألقي نظرة على سجلك الحافل بكتب الشكر والتقدير..

- ولكن..

قلتها وأنا أغوص في بئر عميق.. وقاطعني المدير مرة أخرى:

- ولكن ذلك لا يعني أن نغض الطرف عما جرى في قاعتك يوم أمس..

دفع لي مجموعة من الدفاتر الامتحانية، وأردف بالعصبية نفسها:

- خذ انظر.. إنها المعلومات نفسها تكشف عن محاولة مدبرة للتسريب.. والدليل القاطع أن الأخطاء هي نفسها في الدفاتر الستة..

غائصاً في الظلمات تذكرت عبد العزيز حياوي.. السخرية والاستياء والجوع الذي لا يرحم.. وعمليات البيع والشراء التي يقود إليها بعد تدمير آخر مرتكزات المقاومة في شبكة القيم.

كنت متألماً حتى النخاع.. حزيناً بائساً.. بحيث إنني لم أشأ أن أجيب المدير بكلمة واحدة..

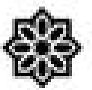
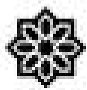
ها هي ذي الشهادة القاطعة بالعجز عن اختراق حاجز الخمسين عاماً تقطع الطريق عليّ.. تلطخ صفحتي البيضاء.. تدفعني للتعثر والسقوط وأنا على بعد أمتار من خط النهاية..

ونهضت قائماً . . منحني الظهر، وأعدت الدفاتر إلى المنضدة التي تفصلني عن المدير وأنا أقول بصوت متلجلج:

- *إنها معادلة صعبة أيها الأستاذ!!*

نظر المدير إلي وكأنه لم يدرك ما أقوله، فأردفت بنبرة توحي باستسلامي الكامل:

- لقد كنت واهماً . .

الساطور

التقيته أكثر من مرة في (سوق المعاش) الذي يباع فيه الخضار والبقول عند منطقة (رأس الجسر) في مدينتي.. كان يعمل مساعداً لأبيه، وكانت ملامحه البلهاء تثيرني، وكنت أتحاشى أن أشتري منه شيئاً، أو أسأله عن سلعة ما.. هذا النمط من الناس ـ كنت أقول في نفسي ـ قد يطلق قذائف يصعب الرد عليها، أو حتى وقفها.. وأنا ممن تخترق الكلمة النابية أو الجارحة لحمه وعظمه، وتنزل كالسكين إلى جملته العصبية فتؤذيه الساعات وربما الأيام الطوال.

ابتسامة ساخرة قد لا تعني شيئاً على الإطلاق، تظل معرشة على وجهه، وتظل شفتاه نصف مفتوحتين لكي تقولا شيئاً ما.. وهو ينظر دائماً إلى الآخرين بالبلاهة المتحدية التي تكشف عن نفسها منذ اللحظة الأولى.

وكلما أدلف إلى السوق تستفزني نظرته هذه فأحدق فيه محاولاً اكتشاف شيء ما وراء (اللا شيء) الذي يحكم قبضته عليه.. فقط من أجل أن أحس بقدر ولو يسير من الاحترام أو التقدير إزاءه كإنسان.. ولكن ذلك استعصى علي، وبقي وجهه المتسطح تماماً بالتعبير الواحد لا يكاد يقول سوى الشيء نفسه، حتى لو امتد ذلك ملايين السنين.

أرغمت نفسي يوماً، وأنا ألحظ إلى جواره سلة من الباميا الطازجة الشهية، أن أسأله عن سعرها.. أجابني باقتضاب.. لم تكن تهمني الباميا.. بقدر رغبتي في أن أخترقه، أن أكتشف على خارطة وجهه ملمحاً آخر غير البلاهة إياها.. واضطررت لشراء خمسة كيلوات ودفع ثمنها الذي حدده هو بكلمة واحدة، دون أن أعثر على بغيتي!!

سنين متطاولة مرت كدتُ أنسى فيها الرجل، وسوق المعاش، ومحاولة الاختراق الفاشلة، ثم ما لبث حلم، وربما كابوس ثقيل، أن اقتحمني عبر إحدى الليالي كواحد من أبشع ما رأيت في حياتي من أحلام وكوابيس، ولعله أبشعها على الإطلاق..

كان (سوق المعاش) غارقاً في جو رمادي مترع بالوحشة والاكتئاب تخترقه من حين لآخر سيارة (بكب) محمّلة باللحوم أو الخضار.. يخترقه أيضاً بعض المارة وهم يحملون على أكتافهم هموم الدنيا، وتتمركز في نظراتهم عتمة يصعب التعبير عنها..

كنت أقف على جانب الطريق محاولاً أن أتابع الحركة في السوق من بعيد، تعتصرني أنا الآخر الوحشة والكآبة ممتزجتين بشيء من الخوف..

مفردات المكان تتغير في الأحلام والكوابيس، بدرجة أو أخرى، يحتفظ المكان إلى حدٍّ ما بروحه وتكوينه، ولكن تفاصيله تتلقى تغييرات شتى.. والزمان هو الآخر.. ينزاح عن سويته، عن تميزه المعهود عبر رحلة الليل والنهار، ويصير زماناً تجريدياً ـ إذا صح

التعبير ـ يصعب عليك أن تحدد الوقت الذي يتشكل فيه، عموماً، إذا لم تخطئني الذاكرة، كان الوقت أقرب إلى بدايات الفجر.. اللحظات التي تتراجع فيها ظلمات الليل وتلقي ظلالاً رمادية شاحبة على الموجودات والأشياء..

لكن طعم الفجر الذي أعشقه كثيراً يختلف في حقيقته ونبضه عما أراه الآن.. ثمة فارق كبير بين الفرح والحزن.. بين البهجة والاكتئاب.. بين الحركة والخفقان.. وبين السكون والموات.. وللحظات حاولت أن أتحرّر من مكان الحلم وزمانه اللذين ضيقا علي الخناق، لكنني لم أستطع.. ويحكمني الكابوس كقدر لا مفرّ منه، فأستسلم لسياله الموحش الكئيب.. ليس ثمة جدوى ولابد من الإذعان على أي حال، ريثما ينجلي الموقف وتجيء لحظة التحرر الموعود.

ألتفت فأرى (الأبله) إياه.. وهو يعمل في الدكان نفسه مع أبيه.. قصّاباً هذه المرة وليس بائع خضار.. جثث الأغنام المسلوخة وأكداس اللحوم تكاد تفصلهما عن الطريق الذي بدا على غير وضعه المعتاد، مصعداً إلى الشمال قليلاً، منحدراً على حين غفلة باتجاه الجنوب.. والدكان تقوم أسفل المنحدر، والأب وابنه يعملان بسكاكينهما في اللحوم والعظام المكدسة تهشيماً وتقطيعاً.. استعداداً لبيعها للمشترين..

لم أدهش لتحول بائعي الخضار والبقول إلى قصابين، فسوق (المعاش) على أي حال كان إلى عهد قريب مزدحماً بالقصابين.. ما

لفت انتباهي شيء آخر تماماً: ثلاثة أو أربعة من الشبان ذوي العضل المفتول والقدرات الجسدية غير الاعتيادية، ينحدرون من أعلى الطريق ويقفون قبالة الأب.. يتحرشون به.. لا أدري لماذا.. يسمعونه بعض الكلمات القاسية فلا يأبه بهم أو يرد عليهم.. كان منشغلاً حتى شحمة أذنيه بتقطيع اللحوم مع ابنه، ولعلّه آثر السلامة بعد إذ رأى أن لا طاقة له بهؤلاء الشبان.. والشباب ينتهزون فرصة تردّد الأب، وربما جبنه، فيزدادون إلحاحاً في استفزازه.. وعلى حين غفلة ينقضون عليه، ويجرونه من الدكان، ثم يطرحونه على قارعة الطريق ويقتلونه!!

كان المنظر مثيراً.. حاول الرجل أن يقاوم ولكنهم أطبقوا عليه.. سقط عقاله أولاً، ثم ما لبث (اليشماغ) أن انحسر عن رأسه الحليق وتبعه العرقجين.. كان يلوّح بيديه متوسلاً إليهم أن يكفوا عنه، ألا يقتلوه.. لسانه أصيب بالشلل فلم تسعفه الكلمات.. ظل للحظات يلوّح بيديه ويرفس في محاولة للخلاص، ولكنهم ما لبثوا أن أجهزوا عليه..

لم يتحرك أحد في السوق لإنقاذه.. كأن الأمر فوق طاقتهم.. وكأن شللاً عاماً أصابهم جميعاً.. الكابوس لا يرحم.. ها هنا بالذات حيث يعجز الإنسان تماماً عن الحركة.. عن إنقاذ نفسه أو الآخرين من القتل.. وحيث يستسلم، كما الأبقار والخرفان، المسوقة إلى المجزرة، لسكاكين القصابين.

لست أدري إن كان هناك أحد في السوق غيري قبالة دراما الفناء والشلل هذه.. انعقد لساني، وتسمَّرت عيناي على المشهد الدامي،

فلم تتح لي أي فرصة على الإطلاق للالتفات ذات اليمين أو ذات الشمال.. لمعرفة فيما إذا كان هناك إلى جواري أو قريباً مني أناس آخرون.. والكابوس لا يرحم.. فها هنا أيضاً يجد الإنسان نفسه في قلب العزلة.. لا أحد معه.. لا أحد على الإطلاق.. قبالة ما يثير الرعدة في الأوصال..

أمعنت النظر في الابن.. كان يحدق ببلاهة في أبيه وهو يرفس الرفسات الأخيرة قبل أن يلفظ أنفاسه، دون أن يفعل شيئاً، أمعنت النظر فيه مرة أخرى، مدفوعاً ـ ربما ـ بالخوف من المجهول، من الهول القادم، من ردّ الفعل الذي يجيء على أيدي البلهاء أكثر قسوة ووحشية.. أمعن في الإيغال بالدم من أي ردّ فعل آخر على الإطلاق.. رأيته بوضوح يرسم الابتسامة نفسها على وجهه وهو يوزع نظره بين جثة أبيه والقتلة الثلاثة.. ورأيته بوضوح وهو يمدّ يده ببطء إلى الساطور الذي كان أبوه قبل دقائق يهشم به عظام الأغنام المذبوحة.. ويلوّح به قليلاً في الفضاء ثم ما يلبث أن ينحني قليلاً ماداً يده الأخرى إلى أحد الشبان الثلاثة الذين يبدو أن الرعب أفقدهم القدرة على الحركة أو الفرار.. جعلهم عاجزين تماماً عن القيام بأي محاولة للخلاص..

سحبه بعنف فطرحه أرضاً، قبالته، تماماً، ثم ما لبث أن انكب عليه وأمسك بساقه، وعلى حين غفلة أنزل بها الساطور فاخترق اللحم والعظم الذي فرقع صوت تكسره في أذني كنذير السوء..

أراد الشاب أن يصرخ فلم تسعفه حنجرته.. كان قد دخل هو

الآخر دائرة الشلل، وكل الذي كان بمقدوره أن يفعله في مجابهة عنف الساطور وهول الألم، أن راح يرفس فيما تبقى من ساقه دون جدوى. .

نظرت إلى الابن كالمشدوه. . وسرت رعدة الرعب في أوصالي، لكن ما كان يطمئنني بعض الشيء أن ثمة حاجزاً ما، لا يكاد يرى، كان يفصلني عن المشهد كله. . لعلي كنت أدرك، بشكل من الأشكال، أنني كنت أحلم وأنني واقع في إسار كابوس لا يرحم، لكنني ـ على أي حال ـ لست أحد أبطاله وإلا وجدت نفسي مرغماً على الدخول في دائرة الموت وانتظار الدور الدامي أسوة بالآخرين. . وكنت ـ فضلاً عن هذا ـ أحس بأن الأبله يعرف مع من يتعامل، وبمن سينزل الساطور. . إنهم العصبة التي أهانت أباه وقتلته قبل لحظات. . وأنا، وكل المتجمهرين الذين لا يكادون يرون من حولي، لسنا طرفاً في المذبحة. .

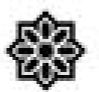
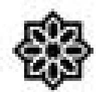
وسرعان ما امتزج الرعب بحالة تقزز كادت تقذف بما في جوفي وأنا أرى الابن يتلذذ برؤية نثار اللحم البشري المفروم على حافة الساطور. . وبنظرة أكثر بلاهة وتحدياً واستفزازاً. . نظرة مترعة بالتشفي والحقد والرضا والارتياح، راح يعاين الساطور ثم ما يلبث أن يمد يده لكي يدفع اللحم المفروم بإبهامه وسبابته ببطء. ماراً بهما على الحافة من أقصاها إلى أقصاها، وهو يوزع نظرته فيمن حوله ممتزجة بالابتسامة إياها. . التي ظلت تلاحقني الأسابيع الطوال. .

أحمد الله أنني استيقظت متحرراً من الكابوس، قبل أن أتابع الدور

وهو يمضي إلى الآخرين، كل ما أذكره عن اللحظات الأخيرة، أن الضحية ظلت ترفس بما تبقى من ساقيها المهشمين حتى لفظت أنفاسها، وأن الأبله كان ينزل ساطوره بين الحين والحين، بأقصى درجات البطء، ولكن بعنف أسطوري يعرف كيف يجعل الشفرة تخترق العظم فتصك أسماع الآخرين بفرقعة تنبثق من خارج دائرة الأصوات المألوفة بحيث إن نسيانها يكاد يكون مستحيلاً..

دفعني الفضول وربما الرغبة الحادة في التحرر من ضغط الكابوس، أو التحقق من دلالاته في دائرة الواقع نفسه، إلى أن أهرع إلى السوق بمجرد طلوع الشمس.. اجتزت المدخل الواسع على وجل، التفت قليلاً إلى يساري حيث تقبع دكان الأب وابنه.. السلال نفسها مصفوفة بعناية، والخضار الطازج معروض فيها كالمعتاد.. الأب منهمك في إفراغ ما تبقى من الأكياس ووضعه في السلال..

بحثت عن الابن فلم أجده.. التفت ذات اليمين وذات الشمال لعلي أعثر عليه عند هذا الجار أو ذاك فلم أجده.. أمعنت النظر في ملامح الأب فإذا بخطوط من الحزن تكسو وجهه.. لم أشأ أن أسأله، كأن دافعاً ما.. لا يقاوم، كفني عن السؤال، رغم رغبتي الجارفة في أن أعرف أين هو؟ ولماذا لم يأت؟. شكمت نفسي بأن قلت: فيما بعد.. فيما بعد.. قد أعرف كل شيء.

مهمة صعبة

في أمسية مع حشد من الأصدقاء دارت الأحاديث ذوات الشجون في حلقات الفكر والثقافة والسياسة والأمور اليومية.. في عوالم المطالعة والكتب.. وفجأة قاطعني أحدهم قائلاً: إنه يملك ساعة مطعمة بحجارة الماس كان قد اشتراها في إحدى رحلاته إلى أوروبة، وأنه يود الآن أن يبيعها بإغراء الفارق الخيالي بين قيمتها الراهنة والعملة الورقية، وقال بأنه سمع بأنني سأسافر عما قريب إلى عمّان وأنه يرغب بأن يحمّلني الساعة لكي أبيعها له هناك..

أعلنت عن موافقتي على مضض، مجاملة مني، وربما لعدم رغبتي في أن أردّ له طلباً، ولعلّه الضعف عن مجابهة أصدقائنا بحقيقة ما يدور في أعماقنا من مشاعر، وما يحتوشنا من أفكار.

كنت أعرف جيداً أن اكتشاف الساعة في متاعي عند أحد مراكز الحدود سيسبب لي المتاعب، وقد يؤول إلى مصادرة الساعة، ولعلّه، وهذا هو المهم، يلحق بسمعتي ضرراً ويدينني بأني من تجار السوق السوداء، وربما المهربين، ولعله، وهذا هو الأشد خطورة، كما خيّل لي وهمي، سيكون فرصة لتدمير سمعتي في بلدي، فها هو ذا المفكر الفلاني يتحول إلى سمسار!!

عدت إلى البيت وأنا أعاني من شيء من القلق، ثم ما لبثت أن نسيت الأمر برمته، فإن بيني وبين السفر أسابيع وربما أشهراً أخرى.

ويوماً وجدتني أسير حلم من نوع غريب..

كنت واقفاً إلى جوار السيارة التي ستقلني وعدد من المسافرين إلى عمّان.. كانت الساحة التي تتجمع فيها السيارات والحافلات، غيرها في الواقع.. في المكان الذي يسمى (الحي الصناعي) على بعد خطوات من (وادي عقاب) حيث تنتشر مقابر المدينة..

على حين غفلة، جذبت انتباهي سيارة (سوبر) بيضاء فارهة تدخل الموقف بسرعة وتمرّ من جواري ثم ما تلبث أن (تفرمل) بعنف على بعد خطوات مني.. ينزل منها شبان ثلاثة أعرفهم جيداً.. إنهم أولاد رجل من أثرياء المدينة كان يتاجر بالأقمشة، وكان الله قد فتح عليه بما جعله يتبرع بإنشاء جامع من ماله الخاص سمي باسمه.. تقدموا إلي على استحياء، ونظراتهم مترعة بالتوسّل والرجاء.. لمحت في يد أحدهم قنينة فيها بقايا سائل أصفر لم أتبين ما هو.. قال لي بعد أن مد إلي يده مصافحاً:

- *نتمنى لك السلامة.*

- شكراً.

- *ومتى ستعود إن شاء الله؟*

- *أيام قليلة قد لا تزيد عن أسبوع أو أسبوعين.*

وإذ لمحني أحدق بدهشة في القنينة المرتجفة بيده.. نظر هو الآخر إليها قليلاً ثم ما لبث أن قال:

- ثمة رجاء.. جئت وإخواني، مؤملين منك تنفيذه.. وها أنت ذا ترى، فقد لحقنا بك قبل أن تركب السيارة وتغادر إلى عمان.

- الحمد لله.

- النية سليمة على ما يبدو.

- إن شاء الله.

ظل نظري معلقاً بالقنينة ذات السائل الأصفر..

- لا أريد أن أطيل عليك، فالدقائق تمضي وأنت على عجل.. كل ما هنالك..

توقف لحظات، حيث طغى على صوته الهادئ.. المرتجف بعض الشيء.. صياح السائق بالركاب أن يهرعوا إلى السيارة استعداداً للانطلاق.. وما لبث أن واصل بسرعة أكبر هذه المرة:

- ليست مهمة صعبة على أي حال.. فما عليك إلا أن تأخذ هذه القنينة، وبعد أن تجتاز الحدود العراقية الأردنية اسفح ما فيها من بقايا السائل الأصفر، وعند وصولك إلى عمان املأها من جديد واجلبها معك لدى عودتك..

أدركت من نظراته، ومن ملامح أخويه اللذين آثرا الصمت، أنهم يعولون كثيراً على تنفيذ طلبهم هذا، وأنه ليس طلباً عادياً، وأن رفضه لأي سبب كان، قد يصدمهم ويصيبهم بالخيبة، وربما يضيع عليهم فرصة قد لا تعوض!!.

وللحظات كان الزمن يمضي فيها بطيئاً متثاقلاً صعباً، وجدتني على مفرق طريق.. خيار صعب بين القبول والرفض، زادته حيثيات الحلم ومنطقه الخاص امتداداً وهؤلاً.. نظراتهم المتوسلة.. وعلاقتي الحميمة بهم كانت تجرني صوب القبول.. والخوف من المجهول.. من احتمال انكشاف المحاولة عند الحدود.. أو أن يكون السائل مادة غير اعتيادية.. تدفعني صوب الاعتذار والرفض..

لحظات صعبة كالسنين مرت وأنا أتقلب بين الحالين مشدوداً بالقوة نفسها إلى القطبين، ممزقاً لا أملك أي قدرة على الميل صوب هذا الاتجاه أو ذاك، والتحرر من نقطة الشد التي لا تطاق..

على أي حال ووسط إلحاح السائق علي الإسراع بالركوب، وبتأثير قاهر لنظرات الإخوة الثلاثة المترعة بالرجاء والمعلقة على كلمة الرضا.. وكأن تلبية طلبهم ستقودهم إلى الخلاص أو تمنحهم المستحيل، ملت إلى القبول وأنا أقول في نفسي: المهم أن أتجاوز نقطة الخيار القاسي الذي لم تعد أعصابي تحتمله وليكن بعدها ما يكون.

مددت يدي لتسلم القنينة، ولحظتهم جيداً وهم يتنفسون الصعداء، والغبطة تكسو وجوههم، وقالوا بصوت واحد:

- *لا ندري كيف نشكرك!!*

قلت بقدر من اللا اكتراث:

- *ليست المهمة من الصعوبة بحيث تستحق الشكر..*

- *لكنه الوفاء في زمن عزّ فيه الوفاء..*

- *المهم أن أنفذ الطلب بتفاصيله..*

قال أولهم مقاطعاً وكأنه يذكرني بالتفاصيل خشية نسيان إحدى حلقاتها:

- *بمجرد أن تغادر الحدود تسكب الماء المتبقي، وعندما تعود تكون قد ملأت القنينة من عمّان.*

- *واضح.. وسأحاول إن شاء الله.*

صافحني وأخواه بحرارة، الواحد تلو الآخر.. ويمموا وجوههم صوب (السوبر) لكي ينسلوا إليها ويقفلوا عائدين وقد اطمأنوا إلى نجاح مهمتهم.. ويممت وجهي أنا الآخر صوب سيارتي التي ينتظر ركابها بنفاد صبر.

لكن، وعلى حين غفلة، يبرز فجأة أحد أقربائي، لا أدري من أين، كأن الأرض انشقت عنه، من حيث لم أكن أتوقع أبداً.. يقف بعيداً عني دون أن يبذل أي محاولة للاقتراب ولو خطوة واحدة.. يرفع كفه نحوي.. محذراً، ينظر إلي بعتاب ممتزج بالدهشة لقبول المهمة.

للوهلة الأولى لم أدرك ما يريده على وجه التحديد.. نظرت إليه بدوري مرة أو مرتين.. كان لا يزال يحرك كفه بهدوء علامة الرفض.. يبدو أنه لم يكن يريدهم أن يروه، حيث كانت تربطه بهم وشائج أكثر عمقاً وقوة من تلك التي تشدني إليهم، ولمحته جيداً.. كان خائفاً من أن يروه ولذا آثر الوقوف في مكان بعيد بعض الشيء، ولم يشأ أن يقترب أكثر، ولجأ إلى إرسال شِفرته بكفه.. بعيونه.. بكلماته التي لم تك تخرج من شفتيه لكنها كانت توحي بضرورة التردد قبل القبول.. وشيئاً فشيئاً أخذ يتكشف لي ما كان يريده.. إن المهمة خطيرة قد لا تؤمن عواقبها، وأن علي أن أرفضها بأي ثمن حتى لو اقتضاني ذلك قطع الخيوط التي تربطني بهم، حتى لو كلفني التنازل عن كلمتي التي أعطيتهم إياها.

مرة أخرى أجدني في لحظة الخيار الصعبة، مشدوداً من نقطة الوسط التي لا تحتمل بين الاعتذار والقبول.. ومرة أخرى يمضي الزمن ثقيلاً متباطئاً يجثم على أعصابي كالجبال، والسائق يضغط على (زماره) بشكل استفزازي يريدني أن أسرع في الركوب، والركاب يكادون يفترسونني بنظراتهم المترعة بالغيظ ونفاد الصبر، وأنا علي أن أختار بين التنازل عن كلمتي وضياع أصدقائي، وبين ما خيّل إلي - بإيحاء قريبي - أنه مهمة قد تقودني إلى الهلاك.

ما ألبث، بصعوبة يزيدها الحلم ثقلاً وحراناً، أن أنتزع نفسي من الأسر وأن أندفع بقوة لا يشكمها أي اعتبار لقيمة ما، اللهم إلا قيمة تطمين الذات مما قد يمكن أن يحدق بها، صوب الطرف النقيض

الآخر، وأهرع إلى سيارة (السوبر) وهي تتهيأ للانطلاق، متشبثاً بالقنينة التي تقبع في أسفلها بقايا السائل الأصفر..

لحظني الإخوة الثلاثة من وراء الزجاج، يبدو أنهم أدركوا بواعث محاولتي اللحاق بهم بمجرد أن رأوا القنينة وهي تهتز بيدي..

قلت لهم وكأنني أجابه المستحيل:

- *أرجو قبول اعتذاري.*

خرجت الكلمات من حلقي جافة متكسرة كحطام السوق المصفرة زمن الحصاد.. وأردفت:

- *ها هي ذي القنينة!!*

مدّوا إلي أيديهم لتسلمها ونظراتهم محمّلة بالحزن والانكسار.

لم أسمح لنفسي بأن أحدق أكثر، لئلا أكتشف من وراء الحزن والانكسار عتاباً من نوع ما قد لا أحتمله على الإطلاق.. نظرة قد تنطوي على ما كنت أخشاه طيلة حياتي: ألا تسقط كلمتي على الأرض!!

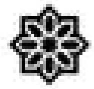
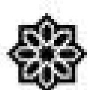
عدت مسرعاً إلى السيارة معتذراً للسائق والركاب لكي ما تلبث أن تنطلق في طريقها إلى عمان.. التفت قليلاً إلى الوراء.. وعبر الزجاج الخلفي للسيارة لمحت الأصدقاء الثلاثة وهم يغادرون الموقف عائدين محملين بحزن يصعب وصفه..

وللحظات ينفجر في داخلي ينبوع لا يرحم من الإحساس بالندم،

تمضي روافده المتفجرة لكي تغمر وجودي كله: العقل والإحساس والوجدان.

إنني أعرف الندم جيداً.. طعمه لا يطاق.. منشاره ينزل بعنف لكي يأكل القناعة والرضا.. ولكنه هذه المرة، وبمنطق الحلم الذي يجسد الإحساس ويمضي به صوب معدلات أسطورية تعجز عن ملاحقتها الكلمات، يصير شيئاً آخر.. شيئاً لا يطاق.. شيئاً تغدو إزاءه لحظات التردد القاسي التي وقعت في إسارها مرتين، لا تكاد تذكر إزاء جمر الندم الذي ينغر في الأعماق..

وأتساءل وأنا أستيقظ متحرراً من ضغط الحلم، فأحس بارتياح عميق وسعادة غامرة، وكأنني أزحت عن كاهلي جبالاً من الهموم: أثمة علاقة أو صلة ما بين هذا الذي رأيته، والذي قد يضيع في تفاصيله غير المعقولة.. وللوهلة الأولى، أي معنى أو مغزى.. وبين طلب صديقي بيع ساعته المطعمة بالماس في عمان، ورغبتي في ألا أرد رجاءه، وتوجسي المكبوت ـ في الوقت نفسه ـ من أن يسبب لي ذلك أذى أو شراً؟!.

كتب للمؤلف

أ ـ بحوث تاريخية:

١. ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (الطبعة الثامنة)، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٢. عماد الدين زنكي (الطبعة الثانية)، مؤسسة الرسالة.

٣. دراسة في السيرة (الطبعة ١٧) مؤسسة الرسالة ـ دار النفائس.

٤. الحصار القاسي: ملامح مأساتنا في إفريقية (الطبعة الثالثة)، مؤسسة الرسالة.

٥. التفسير الإسلامي للتاريخ (الطبعة الخامسة)، دار العلم للملايين.

٦. نور الدين محمود: الرجل والتجربة (الطبعة الثانية)، دار القلم ـ دمشق.

٧. الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام.. أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (الطبعة الأولى)، مؤسسة الرسالة.

٨. في التاريخ الإسلامي: فصول في المنهج والتحليل (الطبعة الأولى)، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٩. المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي: عصر ولاة السلاجقة في الموصل (الطبعة الأولى)، مكتبة المعارف ـ الرياض.

١٠. ابن خلدون إسلامياً (الطبعة الثانية)، المكتب الإسلامي.

١١. دراسات تاريخية (الطبعة الأولى)، المكتب الإسلامي.

١٢. حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (الطبعة الأولى)، دار الثقافة ـ الدوحة.

١٣. المستشرقون والسيرة النبوية: بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر: مونتغمري وات (الطبعة الأولى)، دار الثقافة.

١٤. تحليل للتاريخ الإسلامي: إطار عام (الطبعة الأولى)، دار الثقافة.

١٥. المنظور التاريخي في فكر سيد قطب (الطبعة الأولى)، دار القلم ـ بيروت.

١٦. حاضر الإسلام ومستقبله من منظور غربي (الطبعة الأولى)، دار النفائس ـ بيروت.

ب ـ بحوث إسلامية:

١. لعبة اليمين واليسار (الطبعة الخامسة)، مؤسسة الرسالة.

٢. تهافت العلمانية (الطبعة الخامسة)، مؤسسة الرسالة.

٣. مقال في العدل الاجتماعي (الطبعة الرابعة)، مؤسسة الرسالة.

٤ . مع القرآن في عالمه الرحيب (الطبعة الثالثة)، دار العلم للملايين.

٥ . آفاق قرآنية (الطبعة الثانية)، دار العلم للملايين.

٦ . كتابات على بوابة القرن الخامس عشر (بالاشتراك) (الطبعة الأولى)، دار العلوم ـ الرياض.

٧ . كتابات إسلامية (الطبعة الأولى)، المكتب الإسلامي ـ مكتبة الحرمين.

٨ . أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (الطبعة الثانية)، مؤسسة الرسالة.

٩ . مدخل إلى موقف القرآن من العلم الحديث (الطبعة الأولى)، مؤسسة الرسالة.

١٠ . العلم في مواجهة المادية: قراءة في كتاب (حدود العلم) (الطبعة الثالثة)، مؤسسة الرسالة.

١١ . مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (الطبعة الثانية) مؤسسة الرسالة.

١٢ . حول إعادة تشكيل العقل المسلم (الطبعة الخامسة)، كتاب الأمة ـ الدوحة.

١٣ . في الرؤية الإسلامية (الطبعة الأولى)، دار الثقافة.

١٤ . حوار في المعمار الكوني (الطبعة الأولى)، دار الثقافة.

١٥ . الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي: قراءات (الطبعة الأولى)، دار الثقافة.

١٦. في إسلامية المعرفة: بحوث ومقترحات: (الطبعة الثالثة)، المعهد العالمي ـ فيرجينية.

١٧. قالوا في الإسلام (الطبعة الأولى)، الندوة العالمية ـ الرياض.

١٨. رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (الطبعة الأولى)، كتاب الأمة ـ الدوحة.

١٩. القرآن الكريم من منظور غربي (الطبعة الأولى)، دار الفرقان ـ عمان.

جـ ـ أعمال أدبية:

١. المأسورون (مسرحية ذات أربعة فصول) (الطبعة الثانية)، دار الإرشاد ـ بيروت.

٢. في النقد الإسلامي المعاصر (نقد) (الطبعة الرابعة)، مؤسسة الرسالة.

٣. فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (دراسة) (الطبعة الثانية)، مؤسسة الرسالة.

٤. الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (دراسة) (الطبعة الثانية)، مؤسسة الرسالة.

٥. جداول الحب واليقين (شعر) (الطبعة الثانية)، مؤسسة الرسالة.

٦. معجزة في الضفة الغربية (مسرحيات ذات فصل واحد) (الطبعة الأولى)، مؤسسة الرسالة.

٧. خمس مسرحيات إسلامية (ذات فصل واحد) (الطبعة الأولى)، مؤسسة الرسالة.

٨. محاولات جديدة في النقد الإسلامي (نقد) (الطبعة الأولى)، مؤسسة الرسالة.

٩. الشمس والدنس (مسرحية ذات أربعة فصول) (الطبعة الأولى)، دار الاعتصام ـ القاهرة.

١٠. مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (دراسة) (الطبعة الثانية)، مؤسسة الرسالة.

١١. الإعصار والمئذنة (رواية) (الطبعة الأولى)، مؤسسة الرسالة.

١٢. المغول (مسرحية ذات سبعة مشاهد) (الطبعة الأولى)، مؤسسة الرسالة.

١٣. العبور (مسرحيات ذات فصل واحد) (الطبعة الأولى)، دار المنارة ـ جدة.

١٤. متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (نقد)، (قيد النشر).

١٥. الفن والعقيدة (دراسة) (الطبعة الأولى)، مؤسسة الرسالة.

١٦. في النقد التطبيقي (الطبعة الأولى)، دار البشير ـ عمان.

١٧. من أدب الرحلات (الطبعة الأولى)، دار حضرموت، المكلا ـ اليمن.

١٨. كلمة الله (الطبعة الأولى)، دار حضرموت، المكلا ـ اليمن.

فهرس الموضوعات

